



لآلئ

الوحل..

obeikandi.com

رواية
أحمد فريد

لآلىء الوحل..

الناشر
دار قباء
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

اسم الكتاب: لآلى الوحل

الـ مؤلف : أحمد فريد

سنة النشر : 2007 م

رقم الإيداع : 2007 / 15968

التقييم الدولى : 0 - 536 - 303 - 977

الناشر

دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

E-Mail: modern_qubaa@hotmail.com

الإدارة : (16) عمارات العبور شارع صلاح سالم -

مدينة نصر القاهرة - الدور الثالث

تليفاكس: 02/22621365

محمول : 012/3140315

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للناشر

2007م

ليس كل من له بريق .. غال القيمة.
فأعلى الأشياء وأقيمها هي التي تستخرج
من باطن الأرض.
ولا زال البحث مستمراً..

أحمد فريد

obeikandi.com



اليوم الأحد.. قد يكون الأربعاء، ربما هو الجمعة.
الساعة الثامنة صباحًا.. ربما العاشرة.. قد تكون منتصف النهار.
هكذا ردد في داخله «شوكت فهمى» أثناء سيره فى اتجاه محل
الحياكة الذى يمتلكه فى منطقة حدائق الزيتون.

كان يختلس النظر وراءه بعد كل عدة خطوات يخطوها، وكأنه
يستدعى رحلة الستين عامًا التى هى كل عمره.. رآها بخاطره
وكانها كئيبان من الرمال الناعمة أو خطوط هلامية من السراب.

ستون عامًا كان حصادها مجرد أفرع من الصبار الجافة
والمحترقة من صهد الشمس.. لا تغنى ولا تفيد.. لا شىء غير
أحداث فى تاريخه بلا بصمات ولا ذكريات.. إنسان بلا تاريخ. حتى
ابنه الوحيد الذى أصبح فى الثلاثين من عمره، لا يرى فيه أملاً..
فكل ما حوله ينبئ بأنه سيواصل نفس رحلته المظلمة وسينتهى به
الأمر إلى ما انتهى إليه هو فى هذا العمر المتقدم.

شوكت فهمى الذى كان فيما مضى يزهو بشبابه القوى وقوامه
فارع الطول وشعره الأسود والأملس وصدرة العريض وصوته

الرخيم، أصبح اليوم بعد هذه الرحلة الطويلة يواسى نفسه بتصور أحمق بأنه قد استطاع أن ينتصر على الزمن الغادر الذى سحقه بين الليالى، وامتنص منه كل ما فى كيانه من آمال وطموحات الشباب. فالزمن أسقطه من حساباته بعد أن فرغ منه وجعله كيان بلا جسد وكأنه هيكل عظمى تخترقه الأشياء دون أن تشعر به.. تمر الأحداث من حوله دون أن تؤثر فيه أو يؤثر فيها.. مجرد هيكل لا يزال محتفظاً بآثار الصورة الأدمية، بتجويف العينين التى لا ترى، والأنف الذى بات ممر للخواء فقط، ومكان لغم بلا شفاه ولا قدرة على التعبير.

هذه الحالة التى وصل إليها جعلته يتوهم أنه انتصر على الزمن الذى تركه وشأنه ولم يعد يتريص به.

انتصار الصبار الذى لا يمثل للطبيعة شيئاً.. فلا الفراشات تحوم حوله لتستفد من رحيقه، ولا الطيور تسعى لالتقاط الحب منه، ولا هو مطمئناً لافتراس الحيوانات البرية له.

لا يملك غير انتظار ما تجود به الطبيعة من نسمة هواء أو قطرة ماء تعينه على البقاء.

و.. توقف أمام دكانه واستغرق فى لحظات قاهرة وهو ينظر إلى الباب الحديدى الذى يذكره بمعاناة كل صباح أثناء محاولته لرفعه إلى أعلى ليبدأ فى ممارسة عمله «كترزى» للسيدات.

وكالعادة استعان بأحد المارة ليساعده فى مهمته الثقيلة..
وانحنى ليلتقط الجريدة اليومية الذى دأب بائع الصحف بأن
يقذفها داخل محله كل يوم، ثم استقر وراء المكتب الخشبي فى
انتظار أن يتبته لوجوده صبي المقهى المجاور له ويأتى إليه بكوب
الشاي المعتاد.

بدأ يتصفح الجريدة ليتابع المانشئات الكبيرة أولاً كعادته فى
القراءة ولكنه فى هذه المرة لم يستطع أن يستكملها بعد ما تسمرت
نظرته على صورة وخبر فى صفحة الاجتماعيات.

مجرد صورة.. تزيلتها كلمات تهنئة شعر بأحرفها كالرمح
تخترق رأسه لتدمر البقية الباقية من قدرته على التفكير. وكأنه
أصيب بلوثة مفاجئة.

راح يردد وكأنه يهذى.

.. مستحيل.

.. أنا فى واقع حقيقى. أم فى لحظة وهم .

.. آمال حلمى.. وكيل أول وزارة مرة واحدة .

.. مستحيل أن يكون تشابهاً فى الأسماء.

و.. دس رأسه داخل الجريدة، حتى كادت عيناه تلامس الصورة

ثم عاد يكرر إلى نفسه :

.. نعم إنها هى .. ولكن كيف !!

.. أمال حلمى وكيل أول وزارة.. وأنا ترزى فى شارع جانبى
بمنطقة الزيتون.

.. لعنة الله على الزمن .. اللعنة على ..

ولكنه توقف عن الهذيان، عندما دخل إليه صبي المقهى وهو
يحمل الشاى وقال متطفلاً دون قصد :

- صباح الخير يا أسطى شوكت .. ماذا بك اليوم؟ .. أنت تحدث
نفسك.

التفت إليه والذهول يفترش عينيه .. ثم قال بثورة :

- اغرب عن وجهى الآن وإلا حطمت رأسك.

استدار الصبى هلعاً .. وهو يردد بصوت مسموع :

.. الرجل أصابه الجنون .. مسكين الأسطى شوكت .

وانصرف خارج المحل مسرعاً .

بينما عاد شوكت ثانية للجريدة. وراح يتأمل الصورة وكل نبضه
فى كيانه تنتفض بقوة وكأنها تتفجر الواحدة تلو الأخرى.

خمسة وثلاثون عاماً .. تفصل بين آخر لقاء معها فى الماضى
وبين صورتها الآن. كان كلما تذكرها يضعها فى صورة مختلفة.

تارة يتوقعها قد أدمنت التسول أو النشل. وتارة أخرى
يتصورها إحدى العاهرات وقد سقطت كثيراً فى أيدي الشرطة.

توقعها ترقد فى أحد مقابر الصدقة. أو عاملة فى المنازل. أو
أى شىء آخر.. فكل مؤشرات بداياتها كانت تؤدى إلى ذلك.

ولكن .. أن تصبح وكيل أول وزارة. فذلك هو المستحيل الذى
سلب عقله الآن ، ومهدّ له الطريق إلى الجنون .

تلقت حوله فى ارتباك، كأنه يخشى أن يكون أحداً قد استطاع
أن يتابع ما يدور فى ذهنه.. حاول أن ينهض، ولكنه سرعان ما عاد
إلى جلسته وراء المكتب.. وضع كفيه فوق وجهه وهو مغمض العينين
كما لو كان يستدعى صورتها من ظلمة أعماقه.

وعادت إليه فى صورتها الماضية منذ خمسة وثلاثين عاماً أما
حلمى.. فتاة الخامسة عشرة ربيعاً.. حديث حارة «المكسيكى» وكل
الشوارع المحيطة بها فى منطقة إمبابة.

كان جمالها صارخاً.. شقراء الشعر وزرقاء المقلتين وفارعة
الطول ودقيقة القوام.. تعيش مع عمته وزوجها اللذين تولا رعايتها
وهى فى سن الرابعة بعد وفاة والديها فى حادث إحدى القطارات.
كان ذكاؤها فطرياً وملحوظاً، وفاقت قدرتها على استيعاب العلم
وهى فى الابتدائية عن كل أقرانها بما فيها أبناء عمته الأغبياء.
ولهذا لم تدع لأحد فرصة أن يثنيها عن مواصلة الدراسة بسبب
تفوقها فاستمرت بها حتى المراحل الأولية للثانوية العامة، فى
الوقت الذى تحول أقرانها إلى عمال فى الورش المجاورة بعد

تركهم الدراسة. كان زوج عمته يعمل فى أحد مصانع المواسير المعدنية وبالرغم من قسوته الشديدة وتسلمه على الجميع إلا أنه كان شديد الإعجاب بها وبتفوقها ولهذا تركها تواصل دراستها لحين يتقدم إليها أحد شباب المنطقة للزواج منها وعلى أمل أن يستفيد من مهرها كتعويضاً عن إنفاقه طوال السنوات التى مضت وهى تحت رعايته.

.. انتبه لدخول إحدى السيدات من زبائن محله.

وانتقلته من غفوة ذكرياته .. قائلة :

- السلام عليكم يا أسطى شوكت .. أنا حضرت فى الميعاد حسب الاتفاق.

تململ قليلاً قبل أن يتحرك ، ودون أن يتفوه بكلمة التقط كيس بلاستيك من فوق أحد الأرفف، ثم ناوله لها .. وقال بصعوبة :

- الفستان جاهز .. باقى خمسة جنيهاً من حسابه .

وضعت الجنيهاً الخمس فوق المكتب الخشبى .. واستدارت منصرفه وهى تقول :

- ربنا يخليك يا رجل يا طيب.

ووقف الرجل الطيب حائراً فى وسط محله لا يعرف ماذا يريد .. يعود إلى وراء مكتبه، أم يظل واقفاً .. أو يسترجع الصورة فى الجريدة. أو ينصرف.

واستجاب للقرار الأخير.. وأسرع بفلق الدكان قبل أن تقتحم
إحداهن المكان وتشغله عن رحلة الذكريات.

سار إلى غير هدى.. وجد نفسه أمام محطة مترو الأنفاق..
استقله دون رغبة، وتركه في المحطة المؤدية لميدان التحرير.. واصل
سيره إلى أن ساقته خطواته إلى كوبرى قصر النيل وتوقف عند
منتصفه، مستسلماً لنظرته إلى سطح المياه الداكنة أسفل الكوبرى
وكانه يخترق أعماق النيل باحثاً عن ماضيه الراقد فيه.

و.. تذكر كيف نزع من بلده المنوفية بعد حصوله على دبلوم
الصنایع إلى القاهرة باحثاً عن عمل.. واستقر به الحال في ورشة
ميكانيكا في أحد الشوارع الرئيسية بإمبابه، وتذكر كيف كان لقاؤه
الأول بأمال حلمى، وكيف استطاع أن يلفت نظرها كلما مرت من
أمام ورشته.. كان شاباً فتياً له ملامح بشوشة وقوام مفتول
العضلات.. ويجيد الحديث بكلمات مبهرة تخطف الأسماع.

وخطف كل كيائها ووجدانها. لم يكن يتصور أنها لا زالت في
الخامسة عشرة تخيلها في مثل عمره وقتذاك عشرين عاماً.

واجتمعاً فوق أطلال أحلامهما.. لقاءتهما كانت تظللها سحب
اليأس والحيرة والأمانى المفقودة.. لا أمل في الارتباط.. ولا في
الغد.

وفجأة.. طفحت صورة «عثمان بك» على سطح النيل، بدت

مشوهة المعالم وكان تماسيح النيل قد تقيأتها من شدة بشاعة
ومرارة ذلك الرجل.

راح يضغط على أسانه الصناعية، كلما اقتربت من ذهنه صورة
هذه الكرية. ولكنه كان مضطراً لأن يستدعى ذكرياته معه.
وتذكره ..

عثمان بك كان يكبره بعشرين عاماً في ذلك الوقت.. وهو أحد
زيائن ورشة ميكانيكا السيارات التي يعمل بها.. توطدت العلاقة
بينهما بشكل قوى .. أصبحا شبه صديقين .. وانتهى الأمر بهما أن
كليهما كان يبيت الآخر همومه وأحلامه. وكان فارق السن كفيلاً بأن
يسيطر عثمان تماماً على عقله المشتت.. استطاع بسهولة أن يحركه
في الاتجاه الذي يريد.

بكل الأساليب العفنة.. بالمال والمخدرات.. بالطموحات الزائفة
وبالوعد البراقة. وكانت من أهم خدماته الدنيئة هي توفير الأماكن
المغلقة للقاء شوكت بأمال.

وهكذا سقطت البراءة في أحضان الخطيئة.

وتحركت النبتة الضالة في أحشاء ابنة الخامسة عشرة.

وأصبح مصيرها ما بين الانتحار أو القتل.

وجاء دور الشيطان ليتقدم بالحل الأمثل والمنقذ لهما.

ويقترح بأن يهربا ويتزوجا عرفياً وأنه سيتولى تدليل كل العقبات أمامهما سواء بالعمل أو الدراسة أو الإقامة.
حياة وردية.. ولكنها بلون دماء القتلى والضحايا.

وهربا المراهقان.. هربا وهما مكبلان بقيود التهديد، فكلاهما يخشى نتائج خطيئته.. آمال قد تتعرض للقتل من عمها الذى كان ينتظر جنى ثمار مهرها وشوكت أفزعه خطورة جريمته كمحرض لفتاة قاصر.

أما عثمان بك، ذلك الشيطان الآدمى.. أو الآدمى الشيطان، فقد كشف عن حقيقته بمجرد أن أحكم قبضته على مقاليد أمورها.. وأفصح عن نواياه الدنيئة بعد أن قدم لهما العطاء فى سبيل أن يرجئ المقابل فيما بعد.

كان العطاء هو توفير فرصة عمل لشوكت وأيضاً السماح لآمال باستكمال دراستها بنظام الانتساب، والأهم هو الإقامة الآمنة.

والإقامة الآمنة تمثلت فى مزرعة صغيرة تقع على أطراف مدينة «القليوبية» تخصصت فى إنتاج الخطيئة وتصديرها إلى داخل المجتمع وخارجه.

بدأت المزرعة وكأنها رقعة متأججة قد انشقت من جهنم وسقطت فى هذا المكان وهى تحمل خطايا كل البشر الآثمين.

مكان يأوى الهاربات المراهقات.. الحالمات التائهات..

المشردات الضائعات.. ضحايا الظلم وهوان العاهرات.. جميع ساكنيها قاصرات.

لكل واحدة منهن قصة، ولكل منهن ذلة.. مهمتهن الوحيدة ممارسة الخطيئة تحت أشكال مختلفة من الضغوط والتهديد. فما كان عثمان بك هذا إلا واحداً من سماسرة القوادة. وكانت آمال حلمى واحدة منهن.

خمس سنوات أمضتها وهي تجتر فجيعتها فى كيانها ووليدها الذى أنجبته ولم تره.. وفى شوكت الذى استسلم لقهر الظروف أو استملح ذلك.

وفجأة انتهى كل شيء.. اختفت آمال كما اختفى عثمان. وبيعت المزرعة أو أعيدت لأصحابها.. وكان شيئاً لم يكن. خمسة وثلاثون عاماً مضت على تلك الذكريات المظلمة.

و.. اهتزت قدما شوكت فهمى من شدة الإرهاق.. حيث ظل واقفاً لمدة ساعتين يتأمل سطح النيل بنظره، ويجتر مرارة الماضى فى حلقه.

وقرر أن يعود إلى منزله.. إلى حيث السمعة الطيبة بين جيرانه أو إلى واقعه الجديد الذى تستر على ماضيه مقابل أن يستضيفه على هامش الحياة.

وعند عودته لم يفاجئ بوجود ولده «هيثم» حيث اعتاد كلاهما
ألا ينشغل بالآخر.

ولكنه اضطر أن يهمس إليه وهو فى طريقه إلى غرفته قائلاً:

- أنت هنا يا هيثم !

أجاب الشاب صاحب الثلاثين عاماً .. باقتضاب :

- نعم أنا هنا .

وعلى غير المألوف التفت شوكت إليه متساءلاً :

- أترغب فى أن أعد لك طعام الغذاء؟

نظر إليه فى شرود قبل أن يجيبه بسؤال قائلاً :

- هل أنت جائع ؟

تردد شوكت برهة قبل أن يتفوه بأى كلمة، وكأنه لا يدرى ماذا

يريد وبماذا يجيب .. ولكنه فى النهاية قال :

- ألسنا فى وقت الظهيرة ؟ !!

همس وهو يتأهب للنهوض بتناقل :

- استرح أنت .. وسأتولى أنا إعداد الطعام .. و..

وتحرك فى اتجاه المكان المخصص للطهى ، وبخفى تشبه الإنسان

الآلى .. أو المخدور. كان هيثم فارغ الطول يبدو لمن ينظر إليه أن به

انحناء خفيفة لا يعرف سببها إن كانت بسبب قامته أم من ضغط

انكساره . وسيم الوجه ولكنها وسامة باردة لها ملمس الثلج، وكأنها لوحة زيتية لصورة وجه لا حياة ولا نبض فيها. الشرود يملأ مقلتيه والاكثاب يقبض على شفتيه، ويتسم بهدوء المقهورين والمحرومين.. والمحبتين.

تتاول آنية معدنية لا يعرف ما بداخلها، ولم يسع لذلك.. ثم وضعها فوق الموقد الغازى بعد إشعاله.. ثم وقف أمامه مترقباً دون ملل.

لم يكن هيثم يعرف شيئاً عن ماضى والده.. فذكرياته تبدأ منذ أن كان فى العاشرة من عمره. وقتها كان أبوه يعمل عند جده لأمه فى ورشة حدادة تقع فى حى الغورية.. لا يذكر والدته التى توفت وهو فى سن الثالثة.

علاقته بها كانت من خلال صورتها المرفوعة على جدار الحائط.. ويذكر أيضاً بعد وفاة جده أنه كان يعود من مدرسته ليسرع إلى محل البازار فى منطقة خان الخليلى ليظل يعمل به إلى أن يخيم الليل، ثم يعود إلى والده ليختلس بعض الوقت فى استذكار دروسه. وبالرغم من فترة صباه الجافة التى افتقد خلالها إحساسه بالمشاعر الأبوية تجاهه.. دون أن يعلم لذلك سبباً.. إلا أنه كان سعيداً برعاية صاحب محل الأنتيكات له الذى كان يتعامل معه وكأنه أحد أبنائه، كما ساهمت طبيعة عمله فى خان الخليلى فى

اكتساب الكثير من معرفة اللغات الأجنبية والتي ميزته بين أقرانه أثناء دراسته فى كلية التجارة بداية شبابه. وأسعده أكثر ثقة الرجل فيه لدرجة أنه أصبح يكلفه بمهام كثيرة كان يحرص تماماً على عدم إشراك أبنائه فيها، كأن يستلم البضاعة أو يتفاوض فيها مع مختلف المتعاملين معه سواء من مناطق صناعة التشكيلات الأثرية أو فى مناطق أخرى كالأقصر والمنيا هذا التميز فى التعامل أنساه أن الحياة تتشابك فيها تعاملات أخرى تضم الظالم والمظلوم، والقاهر والمقهور.. والحاكم والمحكوم.. والسارق والمسروق والفاجر والمستور والقادر والمحروم، والفائز والمهزوم.

تعاملات بين الأثرياء والفقراء.. والأقوياء والضعفاء والأسوياء والأشقياء. المحظوظين والمحبطين. التعاء والسعداء.

و.. كان من الطبيعى أن يكون هو أحد أطراف تلك التعاملات. وقرر واقعه أن يكون هو الطرف المظلوم.

حيث فوجئ ذات رحلة من رحلاته المعتادة بالقبض عليه من خلال شرطة الآثار بتهمة تهريبها.. وكان أيضاً من الطبيعى أن يتصل الجميع من المسئولية ويتحمل هو بمفرده ثلاثة سنوات داخل غياهب السجون. لم ير والده طوال تلك الفترة فى زيارة واحدة له.

وبعد انقضاء مدة سجنه، يذهب لصاحب محل الأنتيكات لعله يستفيد بشكل من أشكال المقايضة، ولكنه يكشف أن الآخر يمضى

عقوبة السجن سبع سنوات، ويتعرض للإهانة من أحد أبنائه ويشتبكا فى خصومة بالأيدى تكون من نتيجتها تعرض الآخر لعاهة مستديمة تكلف هيثم ستة أشهر أخرى داخل السجنون.. ثم يعود مرة ثانية للمجتمع ولكن بنفس غير النفس ووجدان غير الوجدان.

وتذكر أيضاً كيف انتقل من حال إلى حال مع والده، ومن واقع إلى غيره إلى أن حطت بهما الأقدار وساقتهما الظروف إلى منطقة الزيتون ليصبح والده ترزياً للسيدات .. ويظل هو بلا عمل.

و.. تذكر أيضاً أنه يقف أمام الإناء المعدنى الذى كاد أن ينصهر فوق الموقد الغازى من شدة اللهب، وربما أدرك فى حينها أن الإناء كان فارغاً. فأطفأ النار. وتحرك مرة ثانية فى إتجاه غرفته بخطوات متناقلة ثم ألقى بنفسه فوق الفراش. دون أن يسأل عن حال والده.. ولا شوكت فهمى استفسر عما حدث. وكأنهما اعتادا على الانتظار.. انتظار المجهول.



عندما يتمرد الوجدان.. ينتصر الوهم على الواقع.

هكذا شعر شوكت فهمى عندما استيقظ فى اليوم التالى .

كل شىء تبدل وتلاشى أمام لحظة إحساس غريب هاجمت
كيانه، فأحالت إحباطه إلى نشوه، ومن الغفوة إلى الصحوة ومن
الخوف والتردد إلى القوة والعزم.

لحظة ثار فيها الوجدان.. تمرد على الزمن والبدن، والماضى
الذى كان.

انتابه إحساس بأنه فى الخامسة والعشرين من عمره.. امتدت
يد التهور إلى حصيلة إدخاراته طوال خمسة عشرة عاماً ماضية،
اقتحم بجرأة محلات بيع الملابس الراقية وابتاع منها لنفسه ما لا
يناسب عمره الحالى.. لم يشعر بحرج وهو يطالب «الحلاق» بأن
يضع لمسات الموضة فوق وبين خصلات شعره الخشن، وألح على
تهذيب شاربه الذى طالما عان كثيراً من هرج شعيراته. وأيضاً لم
يشعر بالندم بعدما تسريت من بين أنامله مئات الجنيهات داخل
محل الأحذية، فالحذاء الجديد كان ثمنه يوازى كل الأحذية التى

اقتناها طوال العشرين سنة الماضية. ولأن القرار كان جريئاً، فبدت تصرفاته أكثر جرأة.

وقرر الذهاب إلى أمال حلمى.

استوقفوه رجال أمن الوزارة.. يسألون ويستفسرون .

تردد برهة إذردد فيها ريقه.. وأجاب :

.. أنا أحد أقرباء معالى وكيل أول الوزارة.. أمال هانم حلمى.

أخبروه إنها فى اجتماع مع السادة الوكلاء، ولكنه امتعض بجرأة وطلب انتظارها واضطر مدير مكتبها وطاقم السكرتارية أن يسمحوا له بالصعود إليها لحين تنتهى من اجتماعها .

كان ثابتاً فى خطواته، وكأنه استمد ثقته بنفسه من هيبه ملابسه.

انتظر فى صالون الاستقبال.. ساعة، ساعتين، ثلاثة.

وكانهم تذكره فجأة، عندما تقدم منه أحدهم متساءلاً بتأدب:

- من حضرتك .. وهل عندك موعد مع سيادة الوكيله ؟

شعر بأنه عارياً تماماً وبأن أمره انكشف، وكأنه لا باع ولا اشترى وضاعت كل الأموال التى أنفقها على ملابسه الجديدة هباءً.

وبعد لحظات انكماش.. قال بصعوبة :

- أخبروها بأن قريباها شوكت فهمى يريد مقابلتها.

و.. قبل أن يتحرك الرجل، عاد شوكت واستوقفه بجرأة.. قائلاً:

- أخبرها أيضاً إننى وصلت من طوخ الآن فقط.

مضت دقائق كثيرة أو سنوات طويلة.. لم يعد يعرف.

خذلته قدماه.. شعر وكأنه أصيب بالشلل فجأة، عندما اقترب

منه شخص آخر وهمس إليه بإقتضاب :

- تفضل .. الهانم فى انتظارك .

سار خلف الرجل منتقلاً من غرفة إلى أخرى.. تقوس قوامه

قليلاً من شدة الخوف والانكسار، وكأنه فى طريقه إلى المقصلة

التي ستفصل رأسه عن جسده.

وفى النهاية وجد نفسه داخل مكتبها بمفرده بعدما تخلف

المرافق عن الدخول. انتابه إحساس بأنه يقف فوق طرف الكون

بينما مكتبها الفاخر يستقر عند الطرف الثانى من نهاية الكرة

الأرضية. لم يعد يدرى إن كان المكان فسيحاً أم أن نظره أصبح

عاجزاً عن الرؤية القريبة.. هل هى تجلس وراء المكتب أم الذى يراه

ضبابياً هو مجرد وهم؟

غاصت خطواته فوق البساط الوثير، شعر وكأن قدميه تعانى

من لزوجة الوحل. كان ينتقل بتثاقل لا إرادى.. كل شئ من حوله

يوحى بالجمود، لم تعد لديه القدرة لتحديد مسار اتجاهه، الصمت

يخيم على المكان وأيضاً فى داخله. وكلما ازداد اقتراباً من المكتب

العريض كلما تملكه الإحساس بالغموض والترقب.

الشيء المؤكد بالنسبة له أن هناك من يجلس وراء المكتب في
ثبات مثير دون أدنى إشارة لحركة أو التفاتة.. ولا صدى.

وبعد عدة خطوات رحلت عنه الإرادة والقدرة على التفكير
وبدا مستسلمًا بلا اختيار.. وتوقف عن السير أو أوقف عنوة، حينما
اخترقت أذنيه كلماتها إليه بنبرة متهمكة:

- ألا زلت على قيد الحياة !!

وتبدل كل شيء في لحظة ، وانقلب حاله رأسًا على عقب بعد
أن شعر بأنه مطالب بأن يثبت لها بأنه حى، وبأنه هو نفسه ..
لحظة أسقطت كل تصوراته ومخططاته في هوة المباغثة .
وقبل أن يحرك شفثيه بكلمة .. أردفت قائلة بحزم :

- اجلس.

و.. انشغلت عنه بمكالمة هاتفية، أتاحت له الفرصة لأن يتأملها
بهدوء خمسة وثلاثون عامًا لم تضاف إليها الكثير.. فقط النظارة
الطبية وبعض الامتلاء فى قوامها.. ولكنها هى .. بشعرها الملتهب
كقرص الشمس، ومقلتيها الزرقاوتين وحاجبها الأشقر الكثيف،
والعنق الذى اشتهرت بجماله، والبشرة المساء التى احتفظت بنضارتها
ووردية لونها.

أنهت المكالمة.. وانتهت معها تأملاته، وبإدركته متساءلة بثبات:

- هه .. ماذا تعمل الآن يا شوكت ؟

ابتلع توتره قبل أن يجيب قائلاً بهمس :

- عندي محل .

رمقته من وراء نظارتها .. ورددت :

- سوپر ماركت !!

تراجع برأسه قليلاً ، ثم قال على استحياء :

- ترزى حريمى .

طفحت القشعريرة فوق جسده ، وكأنه أصيب بمرض الجدرى فجأة، عندما أزاحت النظارة عن عينيها وحاصرته بنظرة قاسية تصورها قنبلة موقوتة سوف تنفجر فى وجهه بعد لحظة. فهو أدرك ما تعنيه بتلك النظرة المرتابة وكأنها تتساءل فى صمت إن كان استبدل مهنة المزرعة بالمحل .

استجمع قدرته قبل أن يقول :

- الحمد لله أن سمعتى جيدة .. ولى ابن وحيد .. و..

قاطعته باقتضاب :

- ماذا تريد يا شوكت .. وما الذى أتى بك إلى هنا؟!

فرك أصابع يديه بعضها ببعض .. وأجاب بتأدب :

- فى الحقيقة جئت أهنئك بالمنصب الجديد .. وأعتقد أنه يهكم معرفة أحوالى .

نظرت إليه بازدراء.. ثم قالت بترقب :

- من أين أتاك هذا الاعتقاد ١٩

بدأ يشعر باستعادة الثقة بنفسه، وأسرع قائلاً بلا تردد:

- ما كان بيننا.. أليس كذلك ١٩

و.. مرة أخرى عات تهمل وجوده وانشغلت عنه بكتابة بعض

الأسطر فوق وريقة صغيرة.. ثم مدتها إليه باتزان شديد قائلة :

- هنا مكان عمل ولا يصلح للمضايقة .. هذا عنوانى وسأنتظرك

غداً فى السابعة مساءً .

وقبل أن يعلق .. أردفت :

- مع السلامة .

تحرك نحو الباب وهو تحت تأثير مفاجأة ذلك الاستقبال غير

المتوقع. فتوقف ملتفتاً إليها وقال بصوت مرتفع فى محاولة منه

لحفظ ماء وجهه :

- بالمناسبة .. أنا أبحث عن وظيفة لهيثم ابنى .

همهمت دون أن تنظر إليه :

- مع السلامة يا شوكت .

وما أن توارى خلف الباب، حتى تناولت سماعة التليفون

وحدثت مدير مكتبها قائلة بحزم يشوبه التوتر :

- إلى جميع المواعيد .. لا أحد يدخل ولا مكالمات هاتفية .

ثم وضعت السماعة ، وهى تنظر بشرود إلى لا شىء .

شعرت بجفاف حلقها وهى تعبت بقلمها فوق الأوراق بخطوط متقاطعة ثم إلى دوائر متداخلة ، وكأنها تستدعى أفكارها المضطربة لتلقى بها فى سلة المهملات .

ولكن محاولاتها باءت بالفشل .. فصدى الماضى كان أقوى من رغبتها .

وتذكرت .. أو أجبرت على التذكر.

كيف استطاع سمسار تجارة الأطفال وقرين الشيطان « عثمان القواد » أن يقنعها بالهروب معه إلى خارج البلاد وهى فى السنة الثالثة من دراستها الجامعية، وكيف أتت دراستها فى دولة عربية أخرى وهو يرافقها بصفته خالها .

تذكرت محاولات استثمارها فى تجارته المعتادة لترويج الدعارة. وتزامن لقاءها مع زوجها الحالى الذى كان شاباً يعمل فى بداية حياته مهندساً ضمن أعضاء شركة كبرى للمقاولات المصرية. فى نفس التوقيت الذى تم القبض على عثمان وتم ترحيله خارج البلاد. وانقطعت صلتها بفترة الضياع الذى بدأت منذ هروبها مع شوكت إلى أن انتهت بزواجها من المهندس أسامة السروجى.

وتذكرت أيضاً، كيف تعددت انتقالاتها مع زوجها إلى بلاد

عربية وأفريقية بمقتضى أعمال شركة المقاولات الكبرى. وعادت بعد ثلاثة أعوام لتلحق بالعمل داخل وزارتها الحالية وتوالت نجاحاتها إلى أن وصلت لذلك المنصب الذى لم تكن تتوقع أنه يمسك بطرف ماضيها وسوف يجذب أحداثه بظهور شوكت فهمى. وهو أيضاً لم يكن أفضل حالاً منها، فمنذ اللحظة التى اختفى فيها من أمامها وهو يكتب إحساسه بالمهانة، بالمكابرة تارة وبحواره مع ذاته تارة أخرى.

.. كيف استطاعت أمال أن تقهر عزيمة بهذه السهولة، ومن أين أتت بهذه المقدرة التى سيطرت بها على عقلى وكيانى ؟
كيف تبدلت المواقع بيننا فأصبحت أنا بالضعف والخجل وهى بالقوة والجرأة! قد يكون منصبها هو الذى منحها تلك القدرة.. أم بسبب اهتزاز صورتي أمامها عندما أبدت الكثير من الاحترام لها. .. لم يعد إلى المحل وذهب إلى منزله ليواجه نظرات هيثم الصامته والمندهشة بسبب مظهره الجديد .

حاول أن يكون طبيعياً وهو يبادره قائلاً :

- عندى لك مفاجأة مذهلة .

لم يتلق تعليقاً أو استفساراً .. فاستطرد بثقة :

- تحدثت مع مسئول كبير بشأنك، لكى يوفر لك عملاً جيداً .. و..

أحبطته نظرات هيثم المتشككة، وكأنه يستكثر عليه إمكاناته لمقابلة أى مسئول حتى لو كان صغيراً .

عاد مستدركاً وواصل حديثه بنبرة هزيلة :

- فى الحقيقة هى مسألة .. وكنت أعرفها منذ زمن بعيد .. ولا يمكنها أن ترد لى طلباً .. تعتبر تقريباً من إحدى قريباتى .

وبهدوء مثير تحدث هيثم لأول مرة قائلاً بتهكم :

- وهل نحن لنا أقباء؟!

سارع قائلاً بحماس أكثر :

- طبعاً .. ولكن الظروف كانت ...

ولكن هيثم يقاطعه .. مردداً أثناء استدارته فى اتجاه غرفته:

- لم أكن أعرف أن المسئولية أصبحت تافهة إلى هذه الدرجة.

لم يحرك شوكت ساكناً ، واكتفى بمتابعته إلى أن توارى عن نظره .. كان الإحساس بالتقصير تجاهه أقوى من رغبته فى مواصلة الحوار معه .

وانشغل عنه بالغليان الذى يفور فى أعماقه بسبب لقائه بأمال.

استلقى فوق فراشه وهو يحملق إلى سقف الغرفة المتشقق

كوجدانه .

وراح يحاور نفسه بالتمنى، فى محاولة منه لإخماد لهيب الغيظ

فى صدره :

.. سأجعلها تتدم على تصرفها معي .. سأذلها وأدمر حياتها إذا لم تستجب لمطالبى . سأعيدها إلى صورتها منذ أن كانت فى حارة المكسيكى . نعم سأذكرها بالمكسيكى ذلك الفتوة الضائع الذى كان يهتك حرمة جسدها فى ذهابها وإيابها دون أن تجرؤ هى أو غيرها على الاعتراض .. سأذكرها بملابسها المهترأة والتى عانت من كثرة إصلاحها .. وبتوسلاتها لى لكى أخلصها من حياتها القاسية وإنقاذها من زوج عمته الذى كان ينتظر استرداد كل ما أنفقه عليها . سأذكرها بدموعها وملاحقاتها لى .. بأحلامنا وحيننا القديم، بعثمان بك وليال المزرعة . بطموحات الثراء .. ويولدنا الذى بعناه أو تنازلنا عنه دون أن نراه .. و..

همهم بنبرة مسموعة مردداً :

.. ولدنا !!

وكأنه فى الأربعين من عمره انتفض تاركًا الفراش، ودس يده داخل دولاب ملابسه العتيق، وتناول صندوقًا خشبيًا متوسط الحجم وأفرغ ما فيه فوق المائدة الصغيرة، ثم التقط ورقتين ملتصقتين ببعضهما . والتهم بعينيه الأسطر التى سجلت فوق الورقة التى تثبت زواجهما العرفى .

وفى لحظة شعر فيها وكأن بحار الدنيا تصب فى أعماقه لتطفئ نيران الغضب بداخله .

وعاد إلى موقعه واستلقى من جديد وهو يضم الورقتين إلى صدره هامساً إلى نفسه :

.. موعداً غداً يا سيادة وكالة أول الوزارة ..

و.. تفرقت ابتسامة زابلة فوق شفثيه الجافتين قبل أن يغمض جفنيه طمعاً في نوم عميق.



مثلما الذكريات الأليمة تثير الأحقاد، فأيضاً النسومات الرقيقة
قد تشعل الرماد. وكما أن رقصات الأفاعى ليست طريراً بقدر
تأهبها للدغات الغدر.

والمياه الراكدة لا تروى ظمأ العطش.

وعندما يصبح معنى الظلم نسبياً، ولا يعى دلالة الحق إلا
المحروم.. وأيضاً عندما تسقط المعايير وتختلط المشاعر وتصبح
الرغبة أقوى من الإمكانيات، وتتحدد الخطى قبل الطرقات.
فى هذه الحالة تتهاوى كل التوقعات.

هكذا أشعلت نسومات الغروب أعماق شوكت فهى وهو فى
طريقه إلى فيلا آمال حلمى.

كان قلبه ينبض بالغل، وفكره يتأجج غضباً.
وكانه اكتشف فجأة أن لديه كرامة أهينت.. وطعن فى كبريائه.
وكان له نخوة أضعفت وحقوق سلبت، ومبادئ سُحلت.

وأدرك بخبراته مع الرذيلة، أن ماضيه معها أقوى من حاضرها

بدونه .

استقرت عقارب ساعة يده عند الساعة مساءً.

وعلى بعد عدة خطوات من الفيلا. قفز إلى خاطره سؤال:

.. كيف تجرؤ على استضافتي فى منزلها.. أليس لديها زوج..

أم توفى؟

ضغط على جرس البوابة وهو يتمتم :

.. هذا شأنها على كل حال .

لحظات قليلة وظهر حارس الفيلا وبادره سائلاً :

- أي خدمة ؟

أجاب بثبات :

- أنا شوكت فهمى .. و..

وقبل أن يسترسل . قاطعه الرجل بتأدب :

- تفضل يا سعادة البك.. الهانم تنتظرك بالداخل .

اندلف بجرأة.. ولكنه توقف فى حيرة عندما لاحظ ابتعاد بناء

الفيلا عن موقعه.. ممر الوصول إليها طويل جداً، وكأن لا يطاقها

إلا مالكو السيارات وكان عليه أن يقطع المسافة سيراً على قدميه،

وعلى أعصابه المتواترة.

حاول أن يتأمل المكان ولكن بشائر الليل حالت دون ذلك..

أدرك بحسه فقط أن الأشجار كثيفة على جانبي الطريق، واختلطت

فى أذنيه أصوات زقزقة الطيور و«نقيق الضفادع».. أفزعه صوت نباح الكلاب التى لا يراها وأيضاً خطوات الرجل الذى يسير خلفه.

وعند مدخل القىلا تولى شخص ثانٍ مسؤولية دخوله إلى القصر المسمى بقىلا «السروجى». أجلسه فى صالون يحيط به عدة صالونات أخرى. وتركه غارق فى انبهاره .

كل شىء مختلف عن واقعه وأحلامه.. الثريات التى تحتل كل واحدة منها مساحة أكبر من الغرفة التى يقيم فيها بمسكنه.. الأبسطه التى خالها مصنوعة من الرمال الناعمة.. والإضاءة التى أتت بضوء الشمس فى بداية الليل.. الهدوء المثير والتحف التى تعتمد أن يكتم أنفاسه أثناء مروره بجانبها حتى لا يسقطها.

و.. ظهرت له أمال حلمى من الطابق الثانى.

واقترت منه جالسة دون أن تصافحه.. ثم قالت ببرود :

- المفروض أنك أحد أقرباء البلد، وتعمل فى التجارة.. انسى مسألة الترزى هذه .

ازدرد ريقه . قبل أن يتساءل :

- ومن يهमे أن يسأل عن ذلك !

أجابت مع نظرة قاسية :

- زوجى مثلاً .. أو ابنتى، أو أى أحد حتى الخدم.

همس بصعوبة مردداً :

- زوجك .
- واصلت نظرتها التي تحمل معانى احتقاره . وأكدت :
- نعم زوجى .. أم كنت تظن أننى سأظل بدون زواج حتى الآن . و ..
- وضعت ساقاً فوق الأخرى واستطردت :
- المهم .. ماذا تريد . وما هى قصة ابنك هذه ؟
- تسلل إلى صدره إحساس الأفعى عندما تشعر بالدفئ، أو بالحرياء وهى تتأهب لتغير لونها، واستجمع شجاعته أو وقاحته ..
- وقال على غير المتوقع :
- أنا جئت من أجل قصتنا .. وليس لأجل قصة ابنى .
- حاولت أن تتقمص اللامبالاة .. وقالت :
- ماذا تقصد ؟
- ازداد جراءة .. قائلاً :
- قصدى أنتِ تفهمينه جيداً .. أريد أن أعرف ماذا حدث منذ آخر لقاء بيننا .
- هل جننت .. كيف تجرؤ على محادثتى بهذا الأسلوب !
- تعمد أن يتجاوز كلماتها .. وأعاد قائلاً :
- أنا فى انتظار إخبارى بكل شئ .

- تراخت نبرة صوتها دون قصد .. وقالت :
- تزوجت .. ولى ابنة تجاوزت العشرين بقليل .
قال بصفاقه :
- بالتفصيل يا أمال .
- شعرت بالفزع عندما استعادت فى ذاكرتها سطوته عليها ..
وحاولت بقدر جهدها أن تتماسك قبل أن تقول :
- الأحداث بعيدة .. وطبيعى ألا أتذكرها جيداً .
- ظهرت أسنانه الصفراء من أسفل شاربه .. وفاجأها قائلاً :
- سأعاونك .. لعلك تستعيدى ذاكرتك .. أريد أن أعرف ماذا
حدث منذ زواجنا العرفى أنا وأنت .. وهروبك مع القواد
عثمان .. وأين اختفيت طوال هذه السنوات ؟
- كتمت بصعوبة صرختها وهى تردد مذهولة :
- زواجنا العرفى .
- نعم زواجنا .. ألسنت زوجتى حتى الآن بحكم الشرع والقانون ؟
قالت بتوجس :
- كان هذا كألعاب الصبية .. ثم إننا مزقنا الأوراق على ما أعتقد .
قال بفتور :

- لا .. لا تعتقدى ذلك.. الأوراق معى.. ولا زلت فى انتظار معرفة ما حدث!
- حاولت من جديد استعادة ثقته بنفسها .. وبادرته :
- هو ابتزاز إذن !!
- شعرت بنظرته تلسع بشرتها.. قبل أن يؤكد قائلاً :
- الابتزاز أسلوب من ليس له حق.. وأنا عندى كل الحقوق لديك.
همست إلى نفسها :
- .. لا مفر إذن .

و.. بدأت تسرد قصتها مع الماضى. كيف هربت مع عثمان وكيف أتمت تعليمها الجامعى.. وكيف تزوجت من أسامة السروجى.. وعن ابنتها خريجة الجامعة الأمريكية والتي تمتلك شركة سياحية كبرى. ومع مرور الوقت اختفى الإحساس بالتوتر، وبات الحديث أكثر تلقائية وود.

وهو أيضاً انساق وراء ذكرياته، وراح يقص عليها كل شيء منذ افتراقهما وكيف تزوج وأنجب ولداً واحداً.. وتحول من مهنة إلى أخرى. وما هو حاله الآن.

ساعتان.. اعتصرا فيهما خمسة وثلاثين عاماً مضت عليهما.
باغتها بسؤال لم يخطط له .. قائلاً :

- ولكن أخبريني .. كيف تزوجتي من هذا الثرى؟
 ونضح إناء أعماقها .. وأجابت مبتسمة :
- فى ذلك الوقت .. اكتشفت أن هناك من هو أكثر سذاجة منى.
 ولأول مرة يشتركا فى ضحكة على غير اتفاق.
 ثم تساءل من جديد :
- وهل لا يزال فى حياتك .. أم ..
 قالت بلا تمهيد :
- هو كثير السفر بحكم أعماله .. ولو أنه أصبح على ما أعتقد
 غير قادر على ذلك بحكم تقدم السن. كما أن لقاءنا نادرة.
 وابنتك !
- ضمت شفيتها وكأنها تتذكرها .. ثم قالت بهدوء :
- جى جى .. والدها أنشأ لها شركة سياحية كبرى حسب
 رغبتها .. وهى مخطوبة لرجل يمتلك عدة بواخر سياحية ..
 يبدو أنهما تعارفا من خلال طبيعة عملهما المشترك.
 طفرت فى مخيلته صورة هيثم .. فأسرع متسائلاً :
- وأين مقر شركة ابنتك ؟
 ترددت لحظة .. ثم أجابت دون مبالاة :
- فى الحقيقة لا أعرف .. فأنا لا أشغل بالى بمثل هذه الأمور.

- تصورى أنا أيضاً لا أعرف شيء عن هيثم ابنى.. غير أنه بلا عمل.

قالت وهى تدعى الحكمة :

- الحياة أصبحت قاسية .. ولا أحد يهتم بغيره .

- عندك حق.. فكلانا تذوق مرارة الظلم .. فنحن شريكان فى العذاب.

أومأت برأسها تؤيده، وقبل أن تتفوه بكلمة واحدة.. أردف قائلاً:

- وفى أشياء أخرى أيضاً.

عاد العبوس يفتersh ملامح وجهها بعد كلماته الغامضة..

وهمست:

- على كل حال الماضى ذهب بأفراحه وأحزانه.

وبدون مقدمات أو تلميحات، تقلصت أسارير وجهه.. وقال

بجدية مصحوبة بالتحدى:

- بما أنك قانعة بأننا شريكان.. فهذا سيوفر الكثير من الجهد

لكى نتفاهم.

لم تفلح فى إخفاء مكرها وهى تقول:

- بالطبع.. سأوفر لابنك هيثم أى عمل لدى جى جى فى شركتها.

أسرع يلاحقها قائلاً :

- هذا أمر مفروغ منه .. أنا أحدثك عنى وعنك .

تساءلت بنبرة مرتجفة :

- ماذا تقصد ؟

قال وهو يتأهب للوقوف :

- أقصد أن لى الحق فى كل هذا الحصاد .. فتحن شركاء منذ

البداية .. نحن دفعنا الثمن باهظاً قبل ذلك . أدلتنا الظروف

وأزرعنا الدموع وقاسينا ظلم القهر .. و .. تنازلنا عن أشياء

كثيرة على رأسها وليدنا الذى لم نعرفه .. أليس كذلك ؟

نهض وهو يستطرد وكأنه يحدث نفسه :

- حان الوقت لكى نجنى ثمار ما زرعناه بقطرات دماءنا .

وقفت فى مواجهته .. وقالت بتعمر :

- لا تلعب بالنار يا شوكت .. لا تنس من أنا الآن . الظروف

اختلفت وبإمكانى أن أقضى عليك بكل الطرق .

أطال النظر إلى عينيها فى لحظة جمود .. ثم قال بصوت هادئ :

- إذا نالت النيران من إنسان، عليه أن يهرع لأبدان الآخرين

ليطفأها قبل أن يتفحم .

أجابت بثبات :

- اطفأها بعيداً عن هنا يا شوكت .

تدلّت ابتسامه باهته على شفّيته قبل أن يحركها قائلاً :

- كيف؟ .. وأنتى اللى أشعلتيا .

استشعرت خطورة موقفها، وأدركت أن محاولتها قد باءت بالفشل وبأن عليها أن تسعى إلى طريقة أخرى .

وهدأت ملامح وجهها قبل أن تبادره بنبرة ودودة قائلة :

- اجلس يا شوكت ولا داعى لهذا التوتر.. يبدو إنك ما زلت متهوراً كما كنت فى السابق .

تسمر فى مكانه دون حراك.. مما دفعها أن تتقدم منه بخطوة واستطردت :

- اجلس يا شوكت.. دعنا نتحاور بهدوء. فما كان بيننا أقوى من أن نفكر فى تدمير أنفسنا .

أسعده كثيراً تراجعها.. وجلس مرة ثانية.

و.. تحاورا من جديد.

حوار تشكلت أحرف كلماته بكل ألوان ومعان الخبث والدهاء والوضاعة المفضوحة كل منهما حاول أن يكشف عن قدراته لتدمير الآخر، كانا كيانين من الجليد يشتركان فى التبلد وافتقاد المشاعر الإنسانية.

صراع بين خطيئتين أو رزيلتين والشيطان يحكم بينهما بحياد تام.

ر'كنهما توقفا عن المبارزة الكلامية فجأة عندما ظهر أسامة السروجى العائد من خارج الثيلا، وسرعان ما انفرجت ملامح وجهها وبدت فى صورتها الأنثوية وبادرته قائلة بتلطف:

- أهلاً يا أسامة.. حمداً لله على السلامة.. متى عدت من سفرك؟!

تقدم زوجها فى اتجاههما، وأجاب والبشاشة تملأ وجهه:

- مساء الخير يا عزيزتى.. يبدو أن عندك ضيوفاً.

وبثبات مثير التفتت نحو شوكت.. وقالت :

- شوكت بك .. أحد بلدياتى ويعمل بالأعمال الحرة. و..

تحولت إلى أسامة .. ورددت :

- أسامة بك السروجى.. زوجى ومهندس استشارى.

تصافحا الرجلان بود كبير.. ثم عاد زوجها يحدثها قائلاً:

- بالمناسبة يا عزيزتى أنا لم أكن مسافراً، ولكننا لم نلتق منذ

ثلاثة أيام تقريباً.

تداركت موقفها سريعاً.. وهمست بصوت حضيض :

- اللعنة على مواعيد عملنا المختلفة.. فأنا لا أراك صباحاً وأنت

لا ترانى مساءً.. و..

وضحكت بميوعة وهى تستطرد:

- على كل حال هذا أفضل لأنه سبب فى ازدياد الشوق بيننا.
شاركها الضحك بطفولية لا تتناسب مع سنوات عمره التي
اقتربت من السبعين.

ثم التفت إلى شوكت.. وقال :

- إذا لم يزعجكما وجودى.. فساكون سعيداً لمشاركتهما الجلسة.
أسرع شوكت .. قائلاً :

- ذلك شرف لى يا أسامة بك.. ولكنى كنت أتأهب للانصراف.
وما كادت آمال تؤيده على ذلك إلا أنها تراجعت أمام إصرار
زوجها الذى لاحقه قائلاً بتلطف كبير :

- والله لا يحدث هذا الآن.. فأنا سعيد لرؤية أحد أقرباء آمال..
خاصة لأنها المرة الأولى التى أتعرف بها على أحد من
بلدياتها.. و..

أطلق ضحكة أخرى بقهقهة مرتفعة.. وهو يواصل:

- وهى فرصة أيضاً لأجلس مع زوجتى التى لا أراها كثيراً.. فهى
مشغولة بعملها دائماً.

استجاب شوكت لمطلب الزوج.. وكانت فرصة ليتأمل ملامحه.

كان أسامة السروجى بدين لدرجة الترهل، قصير القامة وأصلع
الرأس. طلعتة الشخصية توحى بالثراء الفاحش.. والبلاهة أيضاً.

مضت الدقائق فى ثرثرة ثلاثية لا معنى لها.. ما بين متعة الرحلات ومشقة العمل. والمناخ غير المستقر، وأحدث موديلات السيارات والإنشاءات التى قام بها.. ولا مانع من تبادل كلمات النفاق التى تبادلت بين الزوجين.. والإعجاب بالضيف. وأمور أخرى بعيدة تمامًا عن سبب تواجد الضيف نفسه بعد هذه السنوات الطويلة.

وتأكيداً على حسن النوايا.. تساءلت أمال قائلة:

- بالمناسبة يا أسامة.. هل تعرف عنوان مقر شركة جى جى.

أجاب بلا اكترات :

- نعم يا حبيبتي .. و..

تناول قلم من سترته وسجل العنوان على أحد كروته الشخصية ثم ناولها إياه دون أن يستفسر عن السبب. وهى بدورها مدت الكارت إلى شوكت.. وقالت:

- سأخبر جى جى لكى تكون باستقبال هيثم فى أى وقت.

ولأول مرة ينساق الزوج لفضوله ويسأل على استحياء :

- مَنْ يكون هيثم بك؟

ابتسم شوكت مضطرباً ومستكثراً على هيثم هذا اللقب.. ثم قال:

- إنه ابنى .. ولو كان سمع هذا اللقب عنه لسقط مغشياً عليه.

واشترك الجميع فى ضحكة مسموعة لتلك الطرفة التى ذكرها
الأب.

وعاد السروجى يقول موجهاً كلماته له :

- ليته يخبرها عندما يراها بأئنى أشتاق إليها.. وأريد معرفة
أخبارها.

رمقه بنظرة مندهشة قبل أن يتحرك مستأذناً للانصراف.

فلاحقه الرجل مردداً بصدق:

- دعنى أرافقك للسيارة.

أجاب شوكت منزعجاً بعض الشيء :

- لا داعى يا أسامة بك.. فأنا تعمدت ترك السيارة خارج أسوار
القيلا لكى أمارس هوايتى فى السير.

لم يتردد كثيراً قبل مصافحته واستدار فى طريقه إلى الطابق
الثانى.. تاركاً زوجته مع ضيفها.

وبمجرد اختفائه، تحولت آمال إلى شوكت.. وقالت بتجهم
من جديد:

- حاول أن تتخلص من أفكارك السخيفة هذه يا شوكت.. وعلى
كل حال أنا بإمكانى أن أعطيك مبلغاً مناسباً من المال تستكمل
به حياتك الباقية دون مشاكل.

تحرك نحو الباب.. ثم التفت إليها وأجاب بهدوء وثبات:

- سأمنحك فرصة لمدة أسبوعاً.. واعتقد أنها مهلة كافية لتحديد موقفك بعدها ستكونين أنت المسؤولة عما سيحدث لك.. ولأسرتك غير الشرعية.

تمنت لو فى إمكانها إطلاق النار وتقتله.. أن تبصق عليه.. أن تتقض بأظافرها وتنزع أحشاءه، أن تفصل رأسه الكريه عن جسده. وفى النهاية همست باستسلام :

- مع السلامة الآن يا شوكت :
لم يعقب.

ومرة ثانية عاد يخطو منفرداً فوق الممر المظلم دون أن يرافقه أحد على غير ما حدث عند مجيئه. ولكنه كان أكثر ثباتاً وثقة فى نفسه، بعدما أدرك أنه استطاع أن يخلخل كيانها ويسقط أقنعتها التى حاولت أن تحتفى بها أمامه.

ومن خلال ظلمة الليل وأعماقه.. همس إلى ذاته مردداً:

.. يبدو أن الدنيا سوف تبتسم لك يا شوكت، وتصدق مقولة أن الحياة تبدأ بعد الستين.



كأنه قطعة أثاث عتيقة جداً وضعت، وسط موبيليا مودرن حديثة فبدت نشازاً عن باقي المنظومة حوله.. كأنه صفحة بيضاء بلا أسطر ليس لها موضع أو أهمية داخل موسوعة مليئة بالمعلومات. أو زهرة زابلة اندست خطأ وسط مجموعة من الورود النضرة فأفسدت رونقها.. كأنه كلمة بلا معنى فى أبيات قصيدة شعرية رائعة الخيال.

هكذا شعر هيثم بنفسه وهو جالس فى صالون الانتظار داخل الشركة السياحية التى تمتلكها ابنة أمال حلمى.

كل شىء من حوله كان مبهرًا.. الهدوء المتناغم مع الموسيقى الحاملة، الديكورات الساحرة. وملابس العاملين بالشركة وكأنهم فى أتيليه، رائحة العطور التى تفوح من كل جانب.

دقائق قليلة مضت على انتظاره، شعر بها وكأنها أعوام طويلة.. إلى أن اقتربت منه فتاة رقيقة وبادرت به بوجه بشوش قائلة:

- أهلاً أستاذ هيثم.. كلنا سعداء بوجودك بيننا.

نهض يصافحها بتأدب شديد.. ثم قال:

- أهلاً جى جى هانم.. أنا ..

قاطعته بابتسامة أكثر رقة.. وهمست بود ملحوظ :

- لا .لا أنا لست جى جى هانم.. أنا زميلتك فايضة من العلاقات العامة.

ردد بارتباك :

- أنا أسف.. فى الحقيقة أنا لم أر جى جى هانم من قبل.. ولكنى..

وفى محاولة منها لبث الطمأنينة إليه.. أسرعت قائلة:

- لقد أسعدنى كثيراً نبأ تعيينك ضمن فريق العمل معى فى العلاقات العامة هنا .

و.. كانت تلك اللحظة هى بداية زمنية جديدة ورائعة فى حياته سحبت ورائها الأسابيع والشهور وهو ينخرط داخل المجموعة بسهولة ودون تعقيدات وساعده على ذلك خبراته السابقة فى ذلك المجال .

تولى مهام استقبال الأفواج السياحية فى المطار برفقة فايضة أحياناً وبمفرده أحياناً أخرى.. كل شىء كان يسير فى إطار منظومة هادئة على غير ما اعتاد فى حياته السابقة.. الوظيفة لائقة والراتب مغرى وعلاقة الزملاء تقترب من الصداقات التى لها تاريخ. بات يشعر بأن له كيان وتواجد بين الآخرين. لم تعد الحياة با لنسبة له مجرد زفرات يطلقها من صدره، بل معنى جميل يسيطر

على عقله، وطموحات براقه تسكن أعماقه وتدغدغ وجدانه . وكأنها
منحة قدرية أو هبة حياتية تمثلت فى انفراج شفتى الزمن عن
ابتسامه وفاق الواقع الجديد معه .. فألقت إليه بلحظة مبهجة
عندما فوجئ بدخول فتاة غريبة إلى مكتبه الذى تصادف تواجد
فيه بمفرده فى ذلك اليوم وتقدمت نحوه وبادرته بجرأة سائلة:

- ما أخبارك يا أستاذ هيثم .. أرجو أن تكون مستقرًا فى وظيفتك .
أسقطته المباغطة فى حيرة ما بين كلماتها وبين جمالها الأخاذ ..
وقال وهو يرمقها بنظرة مندهشة :

- حضرتك تعرفيننى؟

تلألأت ابتسامه فوق شفتيها جعلت من وجهها أكثر شروقًا
وضياءً .. وأجابت:

- طبعًا أعرفك .. أنت الأستاذ هيثم فهمى أليس كذلك؟

أوما برأسه دون أن يعلق .. واستطردت هى قائلة:

- أنا جيهان السروجى .. و ..

انتفض بلا وعى .. وردد قائلاً باضطراب واضح:

- چى چى هانم .

اتسعت ابتسامتها الرقيقة .. وقالت بود:

- إن لم يكن لديك مانع .. فأنا چى چى بالفعل .

تحرك من وراء مكتبه وأصبح فى مواجهتها وهو يردد بارتباك:

- أنا أسف .. فى الحقيقة .. لم أكن أقصد .. و..

لم تمنحه فرصة إتمام جملة مفيدة أو مفهومة .. وقالت بنبرة

جادة:

- علمت أنك تجيد أكثر من لغة.

- نعم .. فأنا أتحدث الإنجليزية والفرنسية بطلاقة .. ويمكننى

فهم اللغة الإيطالية.

ارتاحت لإجابته .. وقالت بحسم:

- هذا جميل .. فأنا أحتاجك لمرافقة فوج إضافى سيأتى غداً من

كندا .. وكل زملائك منشغلين مع أفواج أخرى .. وعليك صباحاً

أن تستقبلهم فى المطار، ثم ترافقهم لمدة أسبوع فى رحلة نيابية

إلى الأقصر .. وستجد كل تعليماتى عند السكرتيرة وأيضاً

البرنامج المتفق عليه معهم .. و..

وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة، اختفت من أمامه فجأة كما

ظهرت فجأة. وكأنها ومضة برق لاحت فى الأفق لمدة ثوان ثم تلاشت،

أو خاطر جميل اجتاح عقله ورحل دون مقدمات.

وقف حائرًا عدة لحظات لا يعرف ماذا يريد، تحرك بعدها إلى

خارج المكتب، وتوجه إلى السكرتيرة، واستلم منها التعليمات ودسها

فى جيبه دون أن يقرأها، وكالمسحور وجد نفسه خارج الشركة تمامًا

يسير وسط الزحام وكأنه يبحث عن ذلك الكيان الملائكى الذى
تدلى إليه من أفق الأحلام لمدة ثوان واختفى.

تساءل فى صمت:

.. أيمكن أن تكون هذه ملامح بشرية؟

هذا الوجه الوضاء الذى يشع نورًا أكاد أتمسه، وتلك العينان
التي استقطبتا حقول الدنيا ومزارعها فى مقلتيها. وذاك الفم
الرقيق الذى تحميه شفاه قرمزية تتساب من خلالها الكلمات فى
صورة ابتسامات تضى على الكون البهجة والسعادة، والأنف
الشامخ فوقها كما لو كان تاجًا فوق رأس أجمل جميلات الدنيا.

.. أيمكن أن تكون هذه ملامح بشرية؟

الشعر الكستائى الذى تتصارع على خصلاته كل ألوان الطيف
فى الأفق. والقوام المشوق كحد السيف. ونبرات صوتها التي
تندفق من أوتار الكمان وترانيم الناي. و..

لأول مرة بعد غيبة طويلة تسوقه قدماءه إلى محل والده، الذى
استقبله بنظرة فاترة.. ومندهشة.

وكانه جاء ليلقى عليه بمعلومة ثم ينصرف بعدها.. وقال دون
أن يهتم بالنظر إليه وبدون مقدمات :

- لقد تعرفت على صاحبة الشركة اليوم.. جى جى هانم.

أجابه وهو يضغط على فكيه:

- أخيراً ظهرت لك ابنة اللثيمة.

رمقه بنظرة متقرزة.. ثم همس باستياء:

- أنا أحدثك عن صاحبة الشركة التى أعمل بها.. وأنت تتحدث

عن واحدة أخرى ابنة لثيمة كما تصفها.

قال ساخرًا:

- أعرف أنك تقصد چى چى .. وأنا أعنيها.. فهى مؤكد مثل

أمها لثيمة وابنة لثيمة.. وعاهرة أيضاً.. و..

استدار هيثم منصرفاً بعيداً عن المحل وهو يردد فى نفسه

مذهولاً:

.. الرجل مسه الجنون، مؤكد المخدرات سحلت عقله.

كان كلاهما على حق فيما يرى!!

شوكت فهمى لم تسجل المخدرات عقله، ولكنه ذاق الأمرين فى

الأشهر الأخيرة من مكائد أمال حلمى التى استغلت علاقاتها

وسخرتها لإيذائه وتهذيبه بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة.

فتارة يفاجئ بادعاء امرأة «زبونة» جديدة بأنه حاول مغازلتها

وخدش حياؤها وتتعمد الصياح والصراخ لكى تكتمل فضيخته أمام

أهالى المنطقة، وتارة أخرى تتقدم سيدة ثانية ببلاغ إلى الشرطة

تتهمه فيها بتبديد بضعة أمتار من القماش كانت قد سلمته إياه لكى

يقوم بتفصيلها.. ولم يفعل. ومرة ثالثة يفاجئ ببلاغ كيدى بأنه

يخفى داخل محله كمية من المخدرات فينالها ما يناله من إيذاء معنوى أثناء التحقيق معه إلى أن تثبت براءته.

كان يعلم أن أمال حلمى وراء كل تلك المكائد، ولكنه لا يملك دليلاً على ذلك. وفى كل اتصال يجمع بينهما أثناء استنزافها مادياً كانت تتفنن فى ارتداء قناع السذاجة والبراءة. وازداد يقينه بأنها تدبر له خيوط مأساة جديدة عندما فاجأته بأنها قد طلبت تسوية معاشها وتقدمت برغبتها فى الاستقالة.

ولهذا كان كلاهما على حق فيما يرى!!

خاصة هيثم الذى أزعجه رأى والده فى جى جى ووالدتها، وراوده خاطراً بأن ينبرى للدفاع عنهما أمامه، ولكنه أثر الانسحاب بعيداً عنه لأنه فى النهاية لا يعنيه رأيه، بل لم يكن فى حاجة لأن يعرف ردود أفعاله.

فلقد اعتاد أن يصدر شوكت له الإحساس باليتم بالرغم من وجوده على قيد الحياة.. اعتاد منه اللامبالاة والأناية.. والغموض.

ولكن.. الذى لم يعتد عليه هو ذلك الشعور الغريب الذى بدأ يتسلل إلى كيانه منذ الوهلة الأولى التى رأى فيها جى جى. إحساس لم يكن وجدانه صالحاً لاستقباله فى أى وقت مضى منذ نعومة أظافره. فهو لم يهتز لحظة فى حياته أمام أى موقف إنسانى أو مثير لعواطفه.. قلبه الذى تليف على نبض العذاب والقهر

والحرمان كان رافضاً بلا تعمد لأية مؤثرات تفرض عليه. حتى محاولات فائزة التي دأبت على استمالته بكل الطرق باءت جميعها بالفشل وتحطمت على أسوار جموده وشروده الدائم.

وكان الحياة أرادت أن تلقنه درساً جديداً، بأن في جعلتها الكثير من أسرارها التي لا يعرف عنها شيئاً، وكان من ضمن أسرارها نداء القدر الذى من المستحيل تجاهله مهما حاول أن يصم أذنيه. فالمفاجأة أذهلته بقدر ما أسعدته، عندما وصل إلى مرسى الباخرة فى الأقصر ووجد حى حى فى استقبال المجموعة السياحية التي كان يرافقها، حيث استقلت الطائرة فى يوم وصول الباخرة لتكون فى انتظارهم وتؤدى دورها فى الإرشاد السياحى لانشغال موظفيها مع مجموعات أخرى فى نفس التوقيت.

ثلاثة أيام.. شعر فيها وكأنها رحلة عمره بأكمله.

وكانه وُلد فى لحظة لقائه بها وعاش طفولته وصباه وشبابه فى تلك الأيام الثلاث. رافقها بين المجموعة السياحية، ولكنه لم ير غيرها.. لم يسمع غير صوتها بالرغم من أنها لم تحدثه طوال تلك الفترة.. فقط كان يتابعها بنظراته التي يختلسها كلما سمحت الظروف دون أن تدرى هى، حتى أمنياته بدت مستحيلة فكان مع كل شروق للشمس فى يوم جديد كان يأمل ألا يأتى الغروب وأن تظل ساطعة مشرقة حتى لا ينتهى اليوم أو ينتهى لقاءه الصامت

بها. فيعود ساهراً وخائباً داخل غرفته بالباخرة فى انتظار إشراقها فى اليوم التالى.. كان يراها ملكة من أساطير ملكات الفراعنة، تحكم الشعوب.. والقلوب. كل شىء من حولها يخضع لسلطان جمالها وإرادتها، وازداد يقينه بذلك عندما علم من العاملين التابعين لها بأن الباخرة نفسها هى ملك لخطيبها محسن بك. فكيف لا يرى فيها الأسطورة.. وكيف لا تسجد مشاعره أمام معبدها!!

كان قرار عودتها بالباخرة معهم أشبه بهواجس الأحلام بالنسبة له.. لم يصدق واقعه عندما نمت إلى علمه ذلك، ولم يصدق الدنيا بأنها سوف تحقق له أملاً مستحيلاً. ولكن واقعه صدق معه.. .. الدنيا لم تكذب عليه.

وأبحرت الباخرة إلى رحلة العودة، وهى تحمل مليكته الأسطورية دون أن يجرؤ على الاقتراب منها كعادته منذ لقائه بها.

لم يجد غير نهر الأسرار أنيساً يبيته خواطره وتأملاته المحلقة فى سماء الوهم وأحلام اليقظة.. كان يقضى نهاره متصفحاً سطح الأفق الصافى لعله يكتشف من أين هبطت تلك الحورية، ومحللاً فى قرص الشمس فى عناد كاد أن يفقده بصره على أمل أن تكون صورتها هى آخر ما يراه فى دنياه.

ويأتى المساء فينزوى بعيداً فوق سطح الباخرة متوسلاً لذلك

العماق الهادر بكبرياء لعله يكشف له عن هذا الغموض الذى
سيطر على كيانه قبل أعماقه. ولكن.. لا النهار أنصفه ولا الليل
أشفق عليه.

وقرر أن يعود إلى غرفته.

.. فجأة تدانت نجوم السماء واقتربت من الأرض، وأسرع
الليل يحتمى فى جوفها لتحيل الظلام إلى ضياء، وتموج سطح النيل
فى موجات متلاحقة ورأى طيور النورس المستحيل تواجدها فى
ذلك المكان.. وحلقت الطيور من كل جانب وهى تفرد بأعذب
الألحان، وتفتحت أوراق الزهور لتمتص نسمات العطر الفواحة التى
هبّت نحوه بلا مقدمات.

وقبل أن تلعب به الظنون أدرك الحقيقة.. حيث ترمى إليه
صوتها من ورائه فالتفت مذهولاً ليجدها أمامه واقعاً وليس خيالاً..
وبادرت قائلة :

- أنت هنا .. وأنا أبحث عنك منذ ساعة تقريباً.

نهض وهو يستند على الفراغ، وحاول أن يجيب ولكنه فشل..
فأردفت:

- أردت أن أهتلك على حسن تعاملك مع المجموعة.

همس بصعوبة:

- أشكرك.

دارت بعينيها تمسح الموقع من حولها .. ثم قالت بنبرة دافئة:

- ما أجمل هذا المنظر!.. عندك حق تتفرد بنفسك.. و..
- وقبل أن يعلق.. استطردت بتلقائية وهي تشير إليه بالجلوس ثانية:
- اجلس .. فأنا فى حاجة للاسترخاء قليلاً من عناء العمل.
- أطاع رغبتها دون تلكؤ.. وجلست بجواره ثم واصلت قائلة:
- لاحظت أنك دائم الشرود وتفضل الانطواء.. أتلك طبيعتك دائماً؟!

قال باقتضاب:

- اعتدت على الوحدة منذ طفولتى.
- أظهرت رغبتها فى التسامر معه .. وعادت تتساءل:
- أليس لك أصدقاء أو أحياء.. زوجة أو خطيبة؟
- لا.

رمقته بنظرة مندهشة.. وقالت:

- غريبة.. فالمجموعة هنا كلها تنشى على قبولك ولباقتك فى الحديث.

نظر إليها بارتياح مستتر.. ثم أجاب:

- هكذا حال الغرباء.. فهم يتآلفون مع الغرب سريعاً وكأنهم يشعرون بنفس مشاعرهم.

- ازدادت دهشتها .. ورددت متسائلة فى حيرة :
- وهل أنت غريب .. كيف وأنت فى وطنك؟
- أجاب بلا تردد:
- الغربية غربة وجدان وليست أوطان.
- أسرعت قائلة ببراءة :
- بالمناسبة أنا علمت أننا على صلة قرابة أو من أصول ريفية واحدة.
- وأنا أيضاً أخبرنى والدى بذلك.
- فاجأته بسؤال تقليدى :
- من أى بلد أنت ؟
- تملكه الصمت لعدة ثوان كثيرة .. ثم أجاب بصوت منخفض:
- فى الحقيقة .. لا أعرف.
- صاحت بتعجب قائلة :
- كيف؟ .. هل يمكن لإنسان ألا يعرف أين كان نشأته أو نشأة عائلته ؟
- أنا .. أنا هذا الإنسان .
- التفتت إليه فى نظرة صامته وقد ارتسمت على وجهها كل بصمات الاندهشات والتركيز .. حاول أن يبتعد عن محاصرة

مقلتها له ولكنه لم يستطع.. وفجأة.. وعلى غير المتوقع، أطلقت ضحكة بصوت عالٍ مقهقهة في هستيريا فجائية.. مما دفعه لأن يتساءل بحذر:

- ما الذى أثار ضحكاتك؟.. فأنا لم أذكر شيئاً يستدعى كل هذا الضحك.

- لم تتوقف عن ضحكاتها بسهولة.. ثم قالت بكلمات متقطعة :
- لأننى أيضاً.. اكتشفت أننى لا أعرف لى بلداً بعينها. وأين جذورى العائلية.

وبلا إرادة وجد نفسه يشاركها الضحك من قلبه وبسعادة غامرة.
قالت ببهجة حقيقية :

- الحمد لله أن مدحت خطيبي لم يسألنى هذا السؤال وإلا اكتشف جهلى بالأصول.

انطفأت مصابيح الفرحة فوق شفثيه.. أو انفجرت.. ثم قال
بنبرة حزينة:

- أنا ولدت يتيماً.

استجابت لنبرته المكتئبة.. وهمست بفضول متزن:

- ألم تسأل والدك يوماً؟!

- لا أذكر أننا اجتمعنا فى حديث خاص من قبل. فهو لديه مشاغله وأنا لم أسع ذلك .

قالت بصدق :

- وأنا أيضاً.. فبالرغم من أننى لست يتيمة الأبوين.. إلا أننى لم أتذكر يوماً أننى جلست مع إحداهما فى حديث خاص بى.
انفلتت من شفتيه كلمات دون قصد.. قائلاً :

- ألم أقل لك أن الغرياء دائماً ما يتآلفون .

رمقته بنظرة حائرة قبل أن تفاعجه بالنهوض.. وقالت وكأنها تذكرت موعداً هاماً:

- الفجر بدأ يتسلل فى الأفق.. وسأحاول اقتناص بضعة ساعات للنوم.

و.. تركته دون أن تنتظر منه تعليقاً.

وقف مشدوهاً وهو يتابعها إلى أن اختفت من أمامه تماماً.. وكأنه اعتاد منها أن تظهر فجأة وتختفى فجأة كما حدث فى أول لقاء بينهما.

تلقت حوله.. وشعر بوحشة المكان بدونها.

وأصبح فى نظره الأفق غير الأفق، والنهر غير النهر.. والنسيم غير النسيم. ولكنه ارتاح لإحساسه بأنه أصبح فى هذه اللحظة أيضاً.. ليس هو.

وردد فى ذاته.

.. هذا يكفى يا زمن!!



بدأت آمالي حلمي كالنمرة الجريئة وهي تتجول بين أشجار
حديقتهما.. أو غابتهما.

فاض بها الكيل، لم تعد تحتل ملاحقة شوكت فهمي لها.
حاولت معه بأساليب مختلفة على أمل أن تشبهه عن مطاردته..
هددته، أنذرتة، أوقعته في مصائد كيدية. وفي أحيان أخرى حاولت
استمالته أو استعطافه. منحته بعض المال بل الكثير منه. أسقطت
من حساباته أي تلميح بفضحها في عملها، واستقالت.

أرهقها، وشتت أفكارها. أقلق حيرتها وأحال حياتها إلى جحيم
يزداد اشتعالاً في أعماقها مع كل يوم.

لم تجد عنده منفذاً، فخرجت إلى حديقة فيلتها تخطو بين
الأشجار بخطوات ثعبانية، تقطف الزهور لتلقى بها إلى أرض بدلاً
من استنشاق عبيرها. إحساسها الحقيقي هاجم الطبيعة.. طفق
على كل ما حولها.. رأت النجوم وكأنها أعين لذئاب متربصة
لافتراسها. وحفيف أوراق الشجر كطبول الحرب الغابرة. وتحولت
الشتلات الصغيرة إلى أشواك ورماح.. واختلطت ظلمة الليل بقتامة

أعماقها وأطلت رؤوس الأفاعى من صدرها لتهمس فى أذنيها أو تبث سمومها فى عقلها الباطن. شعرت برئيتها تن من الاختناق والألم. فقررت أن تنفذ قرارها المؤجل.

عادت إلى داخل الثيلا. صعدت إلى الطابق الثانى.. أو زحفت. طرقت باب غرفة نوم زوجها، واندلقت وهى تخفى توترها، ويحنكة بالغة أسرعت باستدعاء عبق أنوثتها وابتسامتها التى رحلت عن شفيتها منذ زمن بعيد وما أن رآها حتى اعتدل فى جلسته فوق الفراش.. وبادرها برقة قائلاً:

- لابد أننى فى حلم جميل.. زوجتى الغالية فى غرفتى!!
تقدمت إليه وجلست عند الطرف الآخر من الفراش.. وقالت بدلال فطرى:

- اشتقت لكلماتك الجميلة، وغزلك الراقى.
تدللت ابتسامة على طرف شفاهه الغليظة.. وعاد قائلاً:
- سامح الله عمك الذى أخذك منا طوال السنوات الماضية.. فى الحقيقة قرار اتخاذك الاستقالة هو فى صالحى أنا بالتحديد.
همست بنبرة ناعمة :

- أنت أيضاً استسلمت لأعمالك ورحلاتك خارج البلاد.. وكثيراً ما عانيت من بعادك عنى.

خانه تفكيره.. وتصور أنها جاءت لملاطفته.. فأسرع يقول بتودد:

- ها أنتِ تصرين على الابتعاد.. لماذا لا تقتربى أكثر؟
- تململت للحظة، ثم نهضت ببطء واستدارت في اتجاه أحد أركان الغرفة وجلست فوق أريكة صغيرة توسطت مقعدين.. ورددت بحسم:
- دعك من هذا الآن.. فأنا أريد أن أتجاوز معك في أمر هام.
- ضم شفثيه في استسلام أقرب إلى خيبة الأمل، وسارع بارتداء الروب ثم تقدم نحوها وجلس في مواجهتها.. وأبدى اهتماماً وهو يقول:

- أنا منصت إليك.. ماذا في الأمر يا أمال!
- في الحقيقة لا أعرف إن كان الوقت مناسباً لذلك أم لا.. ولكن في النهاية يجب أن نتشاور معاً لحل مشكلتنا التي قد تعترضنا فيما بعد.

ازداد تحمساً لسماعها.. وتساءل بلهفة:

- يبدو أن الأمر خطير بالفعل.. تحدثي من فضلك.
- فركت أصابع يدها، وزاغت ببصرها للحظات بعيداً عنه، ثم عادت تسلط إليه نظرتها المترقبة.. وبادرته بجدية:
- ألم يتبادر إلى ذهنك ماذا سيكون حالى أنا وچى جى إذا ما قدر الله وحدث لك مكروهاً.

سأل منزعجاً :

- ماذا تقصدين ؟

أجابت بلا تميمق :

- الخلود لله فقط.. والموت سينال منك ومنى يوماً.. مهما طال الزمن.. وفى هذه الحالة ستؤول أغلب ثروتك إلى أشقائك لأنهم أنجبوا ذكوراً.. وأنت لم تتجب غير جيهان .

امتعض وقد طفرت ملامح الاستياء على وجهه قبل أن يقول:

- تفكرين فى موتى.. وأنا بينكما على قيد الحياة.. و..

ضحك بسخرية وأردف :

- وأنا بسذاجتى كنت متصوراً أنك أتيت إلى غرفتى لتبادلىنى الحب.

- هذا التصور أنساك أنك فى السبعين.. وعلينا أن نتدبر الأمر بشئ من الجدية.

- وما هى الجدية فى نظرك يا زوجتى العزيزة؟

أجابت بثقة :

- أن تفعل كما يفعل أغلب الأثرياء الذين فى مثل ظروفك.

- لا زلت فى انتظار وجهة نظرك.. يا شريكة عمرى.

مالت برأسها قليلاً نحوه، وكأنها تتأهب للدغه.. ثم قالت:

- جميل أن تدرك بأننى شريكة عمرك.. ومن حقى عليك أن
تضمن لى مستقبلى ومستقبل ابنتك الوحيدة.

- وهل هناك ضمان أكثر من الحياة التى تعيشين فيها معى.

- اسمع يا سروجى.. لا داعى للمناورات الحوارية.. وأنت تفهم
قصدى جيداً.

أجاب بهدوء مثير:

- نعم . نعم أفهم مقصدك. أنت ترغيبين فى أن أتنازل لك عن
أملاكى وأموالى بيعاً وشراءً حتى تضمنين مستقبلك بعد
وفاتى.

عادت ترتدى وشاح الأنوثة.. وقالت بنعومة ودفء:

- بعد عمر طويل ومديد يا حبيبى.. ولكن.

قاطعها بنفس الهدوء قائلاً:

- ولماذا أنتِ؟.. لماذا لا أتمم تلك الصفقة لصالح ابنتنا جى جى!!

كررت بهمس:

- جى جى..!!

لاحقها مؤكداً :

- أجل.. جى جى.. أليست ابنتنا الوحيدة؟!

مضت لحظات سكون وهى واجمة.. كصمت القبور.

فى هذه الأثناء نهض برشاقة بالرغم من بدائه الواضحة..
واستدار فى خطوات قليلة فى عكس مكانها.. وراح يردد وكأنه أمام
ساحة قضاء:

- أنا أقول لك لماذا لم تفكرى فى جيهان. لأنك من الأساس لا
تفكرين إلا فى ذاتك.. لا تعرفى شيئاً فى الحياة إلا كيانك
ورغباتك.. قلبك لا ينبض إلا بالأنانية وأطماعك التى لا حدود
لها أنستك حتى أمومتك.

قفزت خلفه كالفهد.. وكشفت عن نواياها بصيحة مدوية:

- أنا لا أسمح لك أن تحادثنى بهذه الطريقة.. وقبل أن تكيل لى
الاتهامات حاسب نفسك أولاً.. تساءل أين كنت ومتى كنت
بيننا. أنت الذى لهت وراء شهواتك العنترية مضحياً بواجباتك
كزوج وكأب من أجل الثراء والشهرة.

التفت إليها وهو يحاصرها بنظرة فاحصة.. ثم أجاب بصوت

خفيض:

- لم أكن أعرف أن حنجرتك قوية إلى هذا الحد.

واصلت وهى لا تزال فى حال هياج عصبى.. قائلة :

- وأيضاً لا أسمح لك بتلك السخرية.. و..

اتجهت نحو باب الغرفة فى طريقها للانصراف.. وأردفت:

- على كل حال سأتركك تفكر فى الأمر.

أشعل سيجاره الغليظ.. وقال وهو مولياً لها ظهره:

- لم أنته من حديثي معك. بعد.

توقفت فى التفاتة مندهشة.. وهمست باتزان :

- أنت متوتر الآن.. وسنكمل حديثنا فيما بعد.

أسرع قائلاً بحزم :

- الآن !!

- ماذا تقصد بإصرارك هذا؟!

عاد إلى مجلسه مرة ثانية وهو ينفث سيجاره بعمق.. ثم قال:

- ما دمنا قد كشفنا عن نوايانا.. فيجب أن تكون الأمور أكثر وضوحاً.

سرعان ما ارتدت معطف الأفعى من جديد.. ورددت بنعومة:

- لم أعتد منك على رفض أى طلب لى.. ولهذا من الأفضل أن نؤجل حديثنا.

ومرة ثانية يقول بحزم :

- بل الآن !!

استجابت لمطلبه وجلست أمامه وهى تتأمل ملامحه بترقب..

بينما استطرده هو قائلاً:

- إذا كان هدفك هو الخوف على ثروتى من أطماع أشقائى بعد

وفاتى.. فذلك لن يحدث ولدى أسباب كثيرة ستؤكد لك أن هذا الأمر لن يحدث.

تساءلت بفتور:

- كيف .. ولماذا؟!

- سأخبرك .

و.. فاجأها بأنه متزوج من امرأة «أوكرانية» منذ عشر سنوات وأنجب منها طفلاً لا يزال فى الثامنة من عمره، ويأنه أثر إخفاء الأمر عنها إرضاءً لمشاعرها، وأيضاً إلى أن ينجح فى إقناع والدة الطفل بالإقامة معه فى مصر خاصة أن الولد فى حاجة لعلاج طويل إثر إصابته بمرض مفاجئ أفقده النطق والسمع وعدم القدرة على التركيز والوعى.

وصمت مترقباً، فى انتظار ثورتها العارمة أو بكائها الصارخ.. أن تمطره باللعنات أو تطالبه بالانفصال.. أن تصفه بنكران الجميل بعد ما شاركته رحلة الكفاح الطويلة.. انتظر أن تستعطفه أو تبصق على وجهه بتقزز.

ولكن لا شىء من هذا حدث!!

وفاجأته قائلة ببرود يوحى بالقلق والحذر :

- هل زواجك منها شرعياً ؟

رمتها بنظرة متشككة، ثم أوماً برأسه مؤكداً ذلك.. فأردفت
بنفس هدوئها:

- وهل تعلم مكان إقامتك بالتحديد؟!
- إزداد قلقاً واضطراباً من فتورها.. وهمس بضعف:
- لا .. لا أعتقد.
- انفجرت أساريرها بغرابة شديدة.. ثم قالت بلا مبالاة:
- أين المشكلة إذن؟ .. اعتبر الأمر كأنه لم يكن!!
- تساءل بنبرة متحشجة :
- كيف؟
- أخطرها بأنك طلقته.. وانسى الأمر .
- وابنى!!
- اقتربت منه حتى كادت أن تلامس صدره.. ثم قالت بدلال:
- أنت تقول أنه مريض ومعتوه.. فيماذا سيفيدك.. من الأفضل
أن تتخلص منه!!
- اتسعت عيناه فى ذهول.. قبل أن يقول:
- أتخلص من ابنى.. أى نوع من البشر أنتِ.
- أنا إنسانة واقعية.
- قال بلهفة:

- وأمومتك .. هل يمكن الخلاص من ابنتك حتى إذا كانت

فى هذا الموقف!!؟

تمتت بلا شعور:

- أنا .

ثم صمتت برهة .. أو أسكتتها ذكرى من الزمن الماضى عندما
هاجمتها لحظة تسليمها وخلاصها من وليدها فى فترة حياتها مع
شوكت وعثمان .

ويمقدرة تفوق حد البلادة، استعادت توازنها .. وأردفت:

- أنا لا أحب أن أضع نفسى فى هذا الموقف الذى أنت فيه الآن.

قال بجرأة غير متوقعة :

- لم يخطر ببالى قط أنك بهذه الدرجة من القسوة والتوحش ..

أنتِ امرأة بلا قلب أو ضمير .. شيطانة فى هيئة بشرية .. و ..

قاطعته ساخرة ومتهكمة :

- كفى .. كفى شعارات لا عائد منها أو فائدة .. أنت أخطأت والله

عاقبك على خطيئتك ولا داعى للمكابرة .

- والرحمة والعدل .

تحسست بأناملها رأسه الصلعاء .. وأجابت بهمس الشياطين:

- الرحمة لا تساند السفهاء . والعدالة لا تحمى الضعفاء .

تخلص من أصابعها بأشمئزاز، وقال بصدق:

- يبدو أن تأثير الصدمة عليك جعلتك فى هذه الصورة البشعة..
أنا أشفق عليك.. وأيضاً أتمنى أن تجتازى هذا الموقف
وتتماسكى.. لأنه أمر واقع.

ابتسمت ببرود مثير.. ونهضت متأهبة للانصراف.. وهى تردد
قائلة :

- فكر فى الأمر جيداً يا سروجى.. فأنا لا زلت أحتفظ لك
ببعض الذكريات الجميلة.

وكانه أطلق سهماً مسموماً إلى ظهرها، فهشم عمودها الفقرى
حتى كادت أن تترنح إلى الأرض. عندما ترامى إلى مسامعها
تساؤله بهدوء :

- بالمناسبة.. ما هى قصة المدعو شوكت فهمى الذى ظهر فى
حياتنا فجأة.. ومسألة أقبائك الجدد الذين لم أسمع عنهم
قط من قبل؟؟

وبصعوبة بالغة استدارت إليه وهى تحاول التماسك والاتزان..
وتأملته فى لحظة صمت متوترة، وكأنها تبحث فى عينيه عن
مقصده الحقيقى.. ثم أجابت بحنكة العاهرات وجرأة الفاجرات:
- هذا أكبر دليل على أننى وهبت حياتى كاملة لك.. ولم أهتم

يومًا بأقربائى بعدما اعتبرتك كل شيء فى دنياى.. فأنت أهلى
وكل عشيرتى.

تمتم كما لو كان يحدث نفسه :

- لا أظن !!

لم تعلق.. واستمرت فى سيرها منصرفه إلى خارج الغرفة
وأغلقت الباب دونها. بينما عاد أسامة السروجى يردد كلمته بصوت
مسموع :

.. لا أظن !!



الاختيار ليس دائماً يعنى الحرية.. والإرادة.

هكذا وجد هيثم نفسه أمام لحظة اختيار ظالمة وقهرية.. وكان العذاب دأب على رصد مسيرته فى الحياة وراح يتتبعه أينما ذهب. فمنذ طفولته وهو فى صراع غير متكافئ مع أحداث لا ذنب له فيها، حرمة الليالى من حنان الأمومة وسلبته الحياة رعاية الأبوة وأطلقته وحيداً وسط عالم خاص به، كل ما فيه غامض مجهول لا يستطع من خلاله أن يفرق بين الخير والشر والصدق والكذب والحقيقة والخيال.. عالم هو زعيمه بلا أتباع ورفيقه بلا أليف.. استطعم المرارة واعتاد الخوف وأطمئن للوحدة.

لم يكن لديه ما يملكه لكى يطمع الآخرين فيه، ولكن الواقع كان له رأى آخر، حيث وجد ضالته فى عمره. فاغتصب صباه وامتنص شبابه ثم طالبه بأن يعيش حياة سوية فى مجتمع لا يريد بل ويسعى لتدميره بلا مبرر.. فلم يكن أمامه وسيلة للاختيار.. غير أن يتوهم أنه فى مقدوره أن يمارس الحياة .

منتهى المرارة والظلم أن تتبادل المواقع بين لحظة الاختيار

وبين صاحب القرار.

فى الآونة التى نبض فيها قلب هيثم بالحب لأول مرة فى حياته، أدرك فى حينها أنه من المستحيل التعبير عنه أو حتى يملك قرار الفرار منه.. ومنتهى المرارة والظلم أن يرفض ذات القلب أى مشاعر حب من طرف آخر وهو أيضاً لا يملك قرار الرضى به.
فكلا الأمرين ظالم.. وكأن الحب أيضاً ليس عادلاً.

لهذا اختلف معنى الاختيار عند هيثم شوكت.

وكان الظروف كانت تخطط وتمهد له عمداً كل لقاءاته مع جيهان. سواء داخل مكاتب الشركة أو على متن بواخرها السياحية.. التقيا فى كل شىء.. فى فكرهما وحواراتهما ورغباتهما واستسلامهما، حتى فى محاولة كل منهما إخفاء ذلك الشعور الهادر الذى تمكن من قلبيهما دون إرادة.

ولكن .. فى أغلب الأحيان يكون لصمت الحب صدى!

وجاء الصدى من خلال فائزة عندما دخلت إليه فى غرفته بالباخرة وفاجأته قائلة :

- الآن أدركت لماذا ترفض علاقتى بك.
- كيف أرفض علاقة الزمالة التى بيننا!
- ضحكت بميوعة أقرب إلى الفجور ثم قالت :
- لا تتخابث على يا نمس.. فأنا أعرف كل شىء.

اهتزت أهدابه فى رجفه ارتباك .. قبل أن يقول :

- ماذا تقصدين؟

أسرعت قائلة وهى تداعب طرف ذقنه بأصابعها وكأنه طفل

صغير:

- يا شقى.. أنت لا تعلم أن عيونك قد فضحتك.

وقبل أن يبدي اندهاشه وتذمره من كلماتها .. لاحقته مستطردة

بجدية :

- اسمعنى جيداً يا هيثم.. أنا لا أنكر إعجابى بك. ولذلك فأنا

أشفق عليك ولا أحب أن تتعرض لموقف يفقدك كل شىء.. وقد

يضعك فى موضع لا تتمناه حتى لعدوك.

بدأت ملامح الغضب ترسم على وجهه .. وقال بنبرة حذرة:

- أى موقف هذا الذى تتحدثين عنه .. ومن الأفضل أن تتخلى عن

ذلك الغموض فى حديثك وإلا فلا داعى منه أساساً.

رمقته بنظرة ساخرة .. ثم قالت :

- أنت تلعب بالنار يا هيثم.. علاقتك بجيهان هانم لن تتعدى

عطفها عليك أو التسلى بك .. وإذا ما علم خطيبتها صفوت بك

بمحاولاتك ستكون نهايتك غاية فى السوء.

حاول أن يبدو منزعجاً وهو يقول :

- أنتِ مجنونة بلا شك .. كيف ..
ولكنها قاطعته بثقة :
- أنتِ الواهم .. يا عزيزى لا تفكر الصعود إلى أعلى قمة الجبل
قبل أن تتأكد أولاً كيف ستعرف الهبوط منه .. وإلا .
استفزها دون قصد عندما أفلتت منه الكلمات قائلاً :
- أنتِ تغارين منها .. لأنها
لاحقته قائلة بإصرار :
- أغار ممن يا مسكين .. هذه التافهة لا كيان لها إلا بالورث التي
سترثه من أبيها .
أجاب بتهكم :
- وأنتِ ماذا سترئين .
عادت لميوعتها .. وقالت :
- أنا لا أنتظر الإرث .. أنا أعيش الواقع وأستمع به .. و ..
صممت لحظة وهى تتأمله برغبة دفينه .. ثم أردفت :
- وأنتِ جزء من هذا الواقع .. فتعال نستمتع به سوياً .. فأنا وأنتِ
متشابهان فى الظروف والموقف .. الفرق بيننا أنتى أدرى وأنتِ
واهم ولا تدرى .
تمتم بصدق :

- مسكينة چيهان.. لا أعرف كيف وثقت فيك وأنتِ بهذه النوايا السيئة.

وهنا لم تتمالك نفسها وراحت تقهقه بصوت عالٍ.. ثم تماسكت قليلاً قبل أن تقول :

- يا رجل النوايا الحسنة.. أخبرني إذن ماذا تبتغي من ملاحقتك لها.. فأنت تخطط لاستمالتها ظناً منك بأنك ستستنزف أموالها.. ولكنى أبشرك بالفشل لأن طريقتك ليست ذكية. وهذا أقل وصف أصفه عنك .

- أنتِ إنسانة شاذة.. وچيهان هانم أشرف بكثير مما تظنين لكي تستجيب لأى علاقة حتى ولو كنت أسعى لذلك كما يصور لك خيالك المريض.

اقتربت منه بشدة فى محاولة لإثارة غرائزه، ولكنه تعمد ترك الفراش وانتقل إلى المقعد المجاور، بينما ظلت فى مكانها وكأن الأمر لا يعنىها.. ثم بادرت قائلة:

- سأوضح لك بعض الحقائق لعلك بعد ذلك تتخلى عن أوهامك. لم يعلق.. ولكنه أبدى اهتماماً بنظرته الصامتة إليها فى لهفة للإنصات.

شعرت لحظتها أنها أمسكت بطرف فضوله.. وبدأت تقول:

- هل تعرف طبيعة عملى فى الشركة .. وهل تعلم لماذا لا تستطيع
جيهان الاستغناء عنى !!

أجاب بلا تردد :

- أعرف عنك النشاط والذكاء، وأنت تتقنين عملك . ولذلك هى
متمسكة بك .

ومرة ثانية تطلق ضحكة عالية جداً، وكأنها تتعمد أن يشعر
الجميع بوجودها داخل غرفته .. ثم قالت:

- ألم أقل لك أنك لا تدري شيئاً .. أنا يا صديقى مدير عام
العلاقات الترفيهية للمجموعات السياحية .. ولأن سمعتى
زائفة الصيت فأصبح الجميع يطلبونى بالاسم .. فأنا أستفيد
وهى أيضاً تستفيد وربما تؤهلك أنت أيضاً لكى تستفيد،
خاصة أن السياحة رجال ونساء .. و .. مدحت بك يسبح فى
نهرى ونهرها مع اختلاف الأسلوب .. و ..

وعادت تقترب منه لتراوده عن نفسها بطريقة فاضحة .. ثم
أردفت قائلة بدلال :

- ولكن رغبتى الحقيقية هى أن أسبح فى نهرك أنت .

دفعها برفق وهو يتجاوزها إلى مكان آخر .. وقال بحزم:

- تلك أيضاً معلومة جديدة عنك .. بأنك امرأة رخيصة وكاذبة .

- أعرف أن المفاجأة أذهلتك.. ولكنى سأثبت لك صدق كلامى..
فقط انتظر رسو الباخرة فى الأقصر.. وستجدنى ضيفة فى
غرفة مدحت بك بالفندق كالعادة.

قال باشمئزاز وحزم :

- من فضلك اتركى المكان فوراً.. وإلا .
- لا داعى للغضب.. أنا سأنصرف بمفردى.. ولكن عليك أن
تتذكر ما قلته لك جيداً.. وستعرف أنك كنت واهماً.
و.. تركت الغرفة وتعمدت أن تتلكأ أمام بابها للحظات وهى
تهندم فى ملابسها لكى تثير انتباه العاملين داخل الباخرة بكثير من
الشبهات.

أما التساؤلات فكانت من نصيب هيثم!!

حيث استلقى على الفراش.. أو هوى فوقه، وهو فاقد القدرة
على التركيز. وهاجمته همسات الظنون والحيرة فى أعماقه.. وراح
يلهث ورائها متساءلاً :

.. من أين أتت تلك اللعوب بكل هذه الثقة.. أيمكن أن تكون

صادقة؟

طفرت من بين شفثيه كلمات مردداً بصوت مسموع:

.. مستحيل .. مستحيل أن تكون صادقة.. و..

عاد يسترجع فى ذاته صورة چيهان الملائكية، وحواراتها معه التى تتبض أحرفها بالنقاء وسمو معانيها.. ثم سرعان ما يكتئب صدره عندما يتذكر أسلوب تعامل مدحت بك معه الذى دأب على تسفيه أعماله وتحقير مجهوداته خاصة أمام چيهان التى كانت تتصدى بعنف لكل محاولات خطيبها من أجله وكثيراً ما استرضت خاطره وطالبته بالألا يهتم بتلك المهاترات .

ومرة أخرى تثور التساؤلات بداخله :

.. هل أنا واهم حقاً!!

.. أيمكن لأحد أن تكون لديه تلك المقدرة لكى يخدع الآخرين

فى مظهره وسلوكياته بكل هذه البراعة والإتقان !!

.. إذا تحقق هذا فعلاً، فلا بد وأن تكون للطيور أنياب..

وللزهور مخالب وللبراعة أقتعة خادعة .

و.. رست الباخرة فى ميناءها ولم ترسو خواطره الشاردة.

أمضى ساعات طويلة وهو يقطع الطرقات من موقع إلى آخر..

حائر الخطوات.. بلا هدف، وكأنه يراوغ قراره أو خائفاً من اتخاذه.

كأنه لا يريد أن يعرف الحقيقة.

يريد أن يحتفظ بحلمه الطاهر حتى ولو كان كاذباً.. أو واهماً.

نال منه تعب السير على قدميه، وتاهت ملامح الوجوه أمام

عينيه. لم يعد يرى إلا ما بداخله ما بين الظنون والمخاوف والتردد والفضول.

فاستسلم لقدره وقرر الذهاب إلى الفندق.

لعله يثار من المرأة اللعوب في حالة كذبها أو ينتصر لكرامته وأوهامه في حالة صدقها. وما أن دخل إلى بهو الفندق وتصفح الوجوه بلهفة مرتجفة، حتى كادت أن تتجمد الدماء في عروقه، واشتعلت كل خراجات كيانه وكأنه سقط فجأة في باطن قبر مظلم اختطفه من يد الحياة فوق الأرض، وسلبه نور عينيه ولم يترك له غير نبضات قلبه المرتعبة من هول ما شعر .

رأى مدحت يجالس رجلاً آخر الذي ما أن التقت نظرتهما حتى اشتبكا في قيد صلب أفقد مقلتيهما القدرة على الحراك في أى اتجاه آخر.

كانت المفاجأة مذهلة لكليهما .. لهيثم وللرجل الآخر الذي يجلس بجوار مدحت بك. وكان للماضى رائحة اخترقت صدر هيثم لتمزق أنسجة رئتيه وتضعه على حافة الاختناق.. أو الموت.

كان الرجل هو ذاته الذى طالما تعامل معه هيثم فى الماضى لصالح مالك متجر البازار والمشغولات الأثرية التى تصورها فى بادئ الأمر أنها مقلدة . وهو ذات الرجل الذى انتهى لقاءه به فى المرة الأخيرة إلى ما وراء قضبان السجن.

هو الماضى الظالم.. والمصير المجهول.

و.. تنبه إلى صوت مدحت وهو يناديه بلا حماس:

- اقترِب يا هيثم.. ماذا عندك من مشاكل؟

تقدم نحوهما ببطء غير متعمد.. فأردف مدحت أمراً ومتعالياً:

- اجلس.. وأخبرنى بما لديك بإيجاز.. فأنا مشغول الآن.

وقبل أن يتفوه هيثم بحرف واحد.. تدخل الرجل الآخر قائلاً

بفتور :

- كيف حالك يا هيثم.. هل أصبحت تتعامل لحسابك الخاص

الآن؟ .. و..

التفت تجاه مدحت وقال متساءلاً بنبرة فيها الكثير من العتاب:

- لم أكن أعرف أن لديك عملاء غيرى يا مدحت بك.

افترشت الدهشة ملامح مدحت.. وأجاب بصدق:

- ماذا تقصد يا سليم؟

تدلت ابتسامة ساخرة على طرف شفتى سليم.. ثم قال متهكماً:

- اسمح لى يا مدحت بك.. فبعد أن عرفت الحقيقة الآن فأنا لن

أستطع أن أتعامل معك بعد اليوم.. وأرجوك لا تلومنى.. فأنت

بتصرفك هذا أصبحت مثيراً للشبهات.. وأنا لست على

استعداد للدخول إلى السجن بسبب طموحاتك فى التعامل مع

أكثر من مصدر.

- انفلتت صيحة منزعجة من مدحت وهو يقول بغضب:
- ماذا تقول يا رجل.. فأنا لا أفهم بالفعل مقصدك!؟
- ازدادت حدة سليم وأجاب بجرأة :
- أنت تراوغنى وكأنك ترانى أمامك طفل صغير.. هذا عار عليك يا رجل .. و..
- عاد يلتفت نحو هيثم.. واستطرد قائلاً بتبجح :
- ها هو هيثم أمامك.. اسأله وسيخبرك بأنه تلميذ بالنسبة لى وكنت أنا المصدر للرجل الذى كان يعمل عنده.. ثم تأتى أنت وتضعه فى نفس مستواى وتتعامل معه بدلاً منى.
- تساءل مدحت بثورة مكبوتة.. وهو يتوجه بالحديث إلى هيثم:
- ما هى القصة يا هيثم؟
- انتفض هيثم صامتاً، وكأنه ابتلع لسانه وتحرك للانصراف وصوت سليم يخترق أذنيه وهو يلاحق مدحت قائلاً :
- سأخبرك أنا بالقصة إذا كنت حقاً لا تعلمها.
- و.. مرة ثانية يجد نفسه وسط جموع الغرباء.. وحيداً.
- إلى أين ؟..
- لم يعد يدرى على أى طريق يخطو، وإلى أى اتجاه يسير.
- اختل توازن وجدانه وأصبح فى لحظة مجرد كيان مضطرب،

لا يستطع تحديد معالمه. مجرد شتات لمشاعر مبهمة ما بين الخوف
والثورة، لا يدري إن كان ناقماً أم مقهوراً.. ظالماً أم مظلوماً، كل
شئ من حوله تحول إلى فراغ لا وجود له. لا حقيقة ولا باطل.. لا
صوت ولا صدى.

ما أقسى أن يتآمر الماضي مع الواقع، وكأنهما اتفقا على ألا
يفلت من عذابهما ، ماض لا ذنب له فيه وحاضر لا يرغب أن
يستبقيه!!

كانت صدمته أعظم من أن يبحث عن نتائجها أو عن أسبابها.
اعتراه الفتور. بل ابتلعه، وكأنه تخلص من عقله حتى لا يلهث وراء
أفكاره.. الهول كله والمصيبة الكبرى فى فقدانه لصورة جيهان
الملائكية وقدرتها على تقمص حالة غير حقيقتها التي كان يتمناها،
ولم يتح له القدر فرصة الاحتفاظ بها.
همس إلى نفسه :

.. صدق الفجور، وصدقت فائزة.

.. كذبت البراءة وانتحر الخير بالسم البشرى.

أدرك أن خفافيش النور أكثر شراسة من خفافيش الظلام.

لا فرق بين أنياب التماسيح وبين لدغات العقارب، كلاهما
طريقاً للموت. لا فرق بين إرهابات الماضي ونبضات الواقع
فكليهما أيضاً يؤدي إلى الدمار فالإلى أين يذهب.. وإلى من
يستصرخ!!

عاد إلى الباخرة.

فكر في أن يلعلم حوائجه ويرحل.. أن يحطم زجاج «قمرته»
ويقفز في النيل لعله يغتسل من ماضيه وحاضره.. لعله يتمكن من
الانتحار!!

ولكنه تخلص من غيبوبة أفكاره الشاردة بلا إرادة، عندما انتبه
لصوت طرقات خفيفة على الباب.

فوجيء بمدحت بك يقف أمامه بنفس أساريه وملامحه
الجليدية.. الذي قال بتريص :

- أنت بمفردك .. أم عندك أحد بالغرفة.
أفسح هيثم له الطريق إلى الداخل دون أن يحرك شفتيه..
فدخل مستطرداً:

- أنت إذن قصة كبيرة يا ...
والتفت إليه وهو يجلس.. وأكمل متساءلاً :

- لا أعرف بماذا أناديك.. بهيثم بك.. أم بالمعلم هيثم.. أو
بالزعيم أو الرئيس هيثم.

ظل هيثم على حالته الصامتة، بينما حاول مدحت أن يكون
ودوداً وهو يقول:

- أشهد بالله بأنك السبب في أننى اكتشفت كم أنا غبي..
ومغرور أيضاً.

- يا مدحت بك .. أنا .

ولكنه قاطعه بلطف قائلاً :

- اخرجنى من ذهولى أرجوك .. وأجبنى على سؤالين فقط لكى
أعود إلى رشدى .

همس بترقب :

- أنا تحت أمرك .

قال بحزم :

- كيف استطعت ارتداء قناع البراءة والسذاجة طوال تلك الفترة
الماضية بيننا .. ولماذا ارتضيت لنفسك مهنة بسيطة كهذه وأنت
فى الواقع من كبار المهريين فى مصر وربما فى العالم أيضاً ..
أرجوك أجبنى قبل أن ينفجر عقلى .

وينبرة صادقة، أجاب هيثم آملاً فى اقتاعه :

- صدقتى يا مدحت بك .. أنا لا هذا ولا ذاك .. أنا إنسان بسيط
ظلمته الليالى وكنت أبحث لنفسى عن ..

قاطعه من جديد .. وقال بغيظ مكتوم :

- كفى .. ولا تستهزئ بعقلى أكثر من ذلك .. دعنا نتحدث بوضوح
ونتعامل بأوراق مكشوفة .. الأمر لا يحتمل المراوغة .

لم يستطع هيثم التماسك أكثر من ذلك، وجلس وكأنه بنيان
ينهار بالتدرج ثم نظر إليه بتوسل وإحباط .. وقال بصعوبة واضحة :

- أرشدنى حضرتك.. ما هى الطريقة التى يمكننى بها أن أقتنعك بصدقى؟

تقلصت عروق عنقه، واشتعلت بشرته وجهه بعد أن اندفعت الدماء بقوة إلى رأسه.. وقال وهو يضغط على فكيه بأسنانه:

- أنت إذن تريدنى أن أكشف لك أوراقي أولاً.. لا بأس.. و.. صمت لعدة لحظات وهو ينظر إليه بعينين جاحظتين.. ثم استرسل قائلاً:

- من البداية يجب أن تعرف أنه بسببك قد فقدت المورد الوحيد لى.. وهو سليم.. ثانياً أنا مرتبط بتعاقدات دولية ومحلية من المستحيل التنصل منها.. وكل ما أملك من ثروة أو بواخر وأيضاً شركة السياحة الخاصة بجهان كل هذا مرتبط بتنفيذ تلك الصفقات.. وثالثاً وهو الأهم أن من يدير هذه الصفقات هم رجال المافيا ولن نفلت جميعاً من دمارهم الشامل لنا. فالمسألة إذن ليست بالبساطة التى تحاول أنت أن توهم نفسك بها. ومن الأفضل أن نبحث سوياً عن مخرج مناسب للأزمة التى تسببت أنت فيها بسبب ظهورك فى حياتى. تساءل بلهفة غير واعية:

- جهان هانم على علم بكل هذا؟
أجاب بحسم :

- هي متورطة فى الأمر بأى شكل من الأشكال.. سواء إن كانت تعلم أو لا تعلم.
قال مستسلماً:
- وما المطلوب منى؟!
لاحقه بارتياح :
- أن تقدر حقيقة الموقف.. وأن تقوم بالدور الذى كان يتولاه سليم.. و..
تمهل قليلاً فى التفكير لعدة لحظات ثم أردف قائلاً:
- وأنا موافق مقدماً على كل شروطكم.. ولكن.. قبل أن تتخذ قرارك يجب أن تضع فى حساباتك أن الأمر لن ينتهى بإفشاء حقيقة ماضيك أمام الجميع فقط.. بل ستكون نهايتك مؤلة على أيدى من تسببت فى إرياك صفقاتهم.. بما فىهم أنا شخصياً.
- وقبل أن يجيبه بحرف واحد، فوجىء به ينهض بإصرار وعزم وتوجه فى طريقه للانصراف من الغرفة.. ثم التفت إليه قائلاً بغضب:
- فكر فى الأمر جيداً.. ولا تثير غضب الجميع.
وتركه إلى خارج الغرفة دون أن ينتظر منه أى كلمة.
بينما ظل هيثم فى مكانه دون حراك أو بلا قدرة على الحراك.



كان صباحاً ربيعياً وبيعاً.

كل شيء فيه بدا مشرقاً.. آملاً ومتآملاً.. الأشجار مورقة،
والزهور بألوانها ونضارها. الشمس حانية ومشرقة بأشعتها
المتفائلة. النسيم هادئ. ووجوه البشر مطمئنة.

لم يصدق شوكت فهمى نفسه، عندما اتصلت به آمال حلمى
تستدعيه إلى فيلتها بعد ما أخبرته بسفر زوجها إلى الخارج.

لأول مرة منذ فترة طويلة لم يراوده إحساس بأنها تدبر له
مكيدة أو تضمر له سوءاً. شعر بنبرة صوتها مستغيثة به، وكأنها
تطلب مسانדתه إيذاء موقف ما تورطت فيه أو فشلت فى مواجهته.

ولهذا لم يتردد.. وأسرع إليها وهو يخمل بين أضلعه شهامة
العاشق. وبمجرد أن شاهدته أمامها داخل القفيل.. بادرت بتودد
ولهفة غريبة.

- أنا فى حاجة إليك يا شوكت.

أجاب دون تلكؤ :

- وأنا رهن إشارتك.. ولكن أخبرينى أولاً ما الذى يزعجك هكذا؟!

تناولت كف يده.. وأجلسته بجانبها.. ثم قالت:

- مصيبة.. مصيبة يا شوكت.. لم تكن على البال.

- يا أمال لا داعى للغموض.. وأخبريني ماذا فى الأمر؟!

و.. أخبرته بكل شىء.. وما دار بينها وبين زوجها من حوار أفصح فيه عن أمور كثيرة لم تكن تتوقعها، وكشف عن نواياه وعن مشاعره الحقيقية تجاهها.

تحركت أشجان شوكت وهو يرى أمامه امرأة الماضى التى كان يتهمها بصلافة المشاعر وجفاء الوجدان، رآها مهتزة ومضطربة.. بل وضعيفة أيضاً. رأى الكبرياء يتزلزل فى لحظة وهن، والغطرسة تذوب فى لحظة إستجداء لم يعتد عليه معها من قبل.

همس وكأنه يحدث نفسه :

- الخائن .

أسرعت تردد مؤكدة على همسته :

- نعم الخائن.. تصور بعد طول هذه العشرة معه، وبعد أن ساندته فى رحلة مشاريعه وأعماله، اكتشفت أنه متزوج من أخرى دون علمى.. وأيضاً كشف عن نواياه فى أن يجردنى من حقوقى وممتلكاتى.. هذا اللص النصاب.

قال وهو يطيب خاطرها:

- اهدأى يا حبيبتي اهدأى.. ودعينا نفكر فى الأمر بعقلانية.
فاجأته بابتسامة أنثوية رقيقة تسللت فوق شفيتها.. ثم قالت:
- أعدتتى إلى الماضى الجميل يا شوكت.. فمئذ سنوات طويلة لم
أسمع منك كلمة يا حبيبتي.. بالفعل يا ليت فى مقدرة الإنسان
أن يعيد كل ذكرياته التى طواها النسيان.
أجاب بمشاعر صادقة:
- الذكريات الجميلة لا تموت.. ولكننا نحن الذين نغدر بها..
ونحاول أن نقبرها.
قالت فى نبرة مستسلمة :
- ماذا سنفعل يا شوكت؟.. الحيرة تكاد تقتلنى.
وما كاد أن يتفوه بكلمة، حتى استوقفته بإشارة من يدها..
ورددت هامسة:
- اصمت الآن.. فأنا لم أعد أثق فيه وقد يكون قد ترك لنا من
يتلصص علينا من الخدم.. تعال معى.
و.. أخذته بل سحبته إلى غرفتها، وهو يسير بجانبها
كالمسحور بلا تردد وأحكمت غلق الباب.. ثم دعتة إلى الجلوس
بجانبها على طرف الفراش.. وقالت:
- الآن يمكننا أن نتحدث بأمان.

- اطلبى منه الانفصال.
- أفلتت منها صيحة منزعجة.. قائلة :
- لا .. مستحيل.. ذلك سيمنحه فرصة تنفيذ أهدافه.
- قال فى لحظة شهامة غير متوقعة :
- لا تهتمى بالاتفاق الذى كان بيننا.
- قالت بدلال مستكين :
- يا شوكت أنا كنت أعلم أن تهديدك لى غير حقيقى.. لعنة الله على الغيرة هى التى كانت تأكل قلبك.
- ارتاح لذلك التبرير.. وعاد يقول:
- نعم هذه هى الحقيقة .
- نهضت من جانبه.. وسارت بضعة خطوات بلا هدف.. ثم رددت قائلة :
- أريد الانتقام لى نفسى.. أريد أن أدمره .
- لحق بها.. وقال باهتمام :
- إذن .. يجب أن نفوت عليه الفرصة ونباغته .
- تساءلت بلهفة :
- كيف؟
- نقتله.

التفتت نحوه مذعورة :

- ماذا قلت؟.. نقلته.. أهذا ما تفتق إليه ذهنك.. وكيف!!
- عاد إلى جلسته الأولى .. ثم نظر إليها بتركيز.. وقال:
نحن أصبحنا نعيش فى واقع مختلفاً تماماً عن واقع ماضينا..
- اليوم أصبح الحوار من طرف واحد فقط.. الحوار من حق الأقوى.. لم تعد للمشاعر قيمة ولا للمبادئ وجود، ولا انتماء لأى شىء.. صيحة العصر هى يا قاتل أو يا مقتول.
- اقتربت منه بهدوء كالأفعى :
- فى الحقيقة تلك هى رغبتى التى كنت أشعر بها.. ولكنى لم أفهمها.. ولم ترد على خاطرى قط.. وكأنتى أبحث عن مبرر قوى دون أن أعلم.
- المبرر الوحيد.. هو الفارق بين اليوم والأمس، وبين الحاضر والماضى.
- و.. تولى هو قيادتها هذه المرة وأجلسها بنفسه إلى جواره.. ثم استطرد قائلاً بجدية :
- كل شىء اختلف من حولنا.. المعانى نفسها لم تعد تعبر عن مفهومها.. انظرى كيف كان الحب فى زماننا، وكيف أصبح معناه الآن.. المحب كان على استعداد أن يضحي بنفسه فى سبيل من يعشقه، واليوم بات يضحي به من أجل نفسه. انظرى

كيف كان موقفنا أنا وأنتِ في الماضي، عندما ضحينا بكل شيء من أجل أن نحمل حبنا وأن نعيش معاً. ..

أسقط نظره إلى الأرض.. وعاد يسترسل بنبرة حزينة:

- تركنا أهلنا.. وحياتنا الاجتماعية وإقامتنا.. تركنا كل شيء لنصبح آمنين بعيداً عن كل ما يتسبب في فراقنا.. تذكرى كم تحملنا من عذابات وكنمنا في صدورنا الآهات.. تذكرى المقابل الذى دفعناه والقهر الذى تذوقناه.
كل هذا من أجل حبنا.. من أجل عشقنا.. من..
و.. توقف الكلام .

وفاحت من جديد رائحة الخطيئة العفنة، لتعقب المكان بدنس الرذيلة وأنفاس الشيطان الذى أظلهما برعايته.

مجرد دقائق قليلة ماجنة وفاجرة احتوتهما تحت ستار الخيانة.. ثم أطلقت سراحهما ورحلت.

وعاد كل شيء إلى سابق تلك الدقائق.

وفى هدوء مثير قالت:

- من الأفضل أن تتصرف الآن قبل أن يلاحظ أحد تواجدك هنا.. ودعنا نفكر ملياً فى الأمر.

قال وهو ينهض ببطء:

- وإذا لم نجد وسيلة أخرى.
- أجابت بجمود :
- سيكون ذلك حكم القدر .
- ربت على كتفها برفق.. ثم قال:
- الآن فقط.. تأكدت أنتى أقف أمام أمال حلمى التى كنت أحبها.
- وأسرع منصرفاً فى طريقه إلى خارج الفيلا.
- وبدأت الأمانى تدغدغ مشاعره من جديد.. شعر بخطواته ثابتة وبقامته مستقيمة ورئتيه أكثر اتساعاً.. حلم الثراء راح يقذف إلى خاطره صور الحياة الرغدة والمترفة.. صدق أوهامه وأخذ ينظر للوجوه التى من حوله بتعال وكبرياء السفهاء.
- ولأول مرة يشعر بقيمة الزمن، كانت الأيام تمضى وهو يتابع لياليها وساعاتها. أصبح ينتظر شروق الشمس ويراقب رحيل الليل وهو يتأهب لاستقبال حياته الجديدة والسعيدة.
- حاول أن يتناسى الواقع.. ولكن واقعه تعمد ألا ينساه!!
- عندما لاحظ تواجد هيثم دائماً فى المنزل، وتصور أن داء الانطواء قد أصابه من جديد. فألح عليه لأول مرة فى حياته معه أن يعرف سبب عزلته الجديدة، واضطر هيثم لأن يخبره بما حدث فى آخر رحلة له، كان ينصت إليه باهتمام غير معتاد. و..

أذهلته المفاجأة عندما اختتم كلماته قائلاً:

- لذا أنا قررت عدم الذهاب مرة ثانية للشركة.. وسأبحث عن عمل آخر.

التفت نحوه بغضب محموم وقال:

- أنت جننت بكل تأكيد.. كيف تترك مالك بعد أن واقتك تلك الفرصة الذهبية؟

أجاب بهمسة مصحوبة بالدهشة :

- مالى!!

لاحقه قائلاً:

- نعم مالك.. فمن الطبيعي أن تكون أموالى هى أموالك.. و.. صمت لحظة، ثم مسح جبهته بأطراف أصابعه وكأنه تذكر فجأة مسؤولية الأبوة وأردف قائلاً :

- المفترض هذا.. أليس أنت ابنى الوحيد الذى تحمل اسمى!

أجابه بفتور :

- وما دخلك أنت فى أموال الآخرين.. ومن أين لك هذا الحق؟

قال بثقة :

- سبق وأن قلت لك أن بينى وبين أمان حلمى مصالح سابقة.. ثم

إننى لا أستبعد أن تكون هى وزوجها شركاءً للمدعو مدحت فى

تجارة الآثار.

شرد هيثم بذهنه بعيداً عن واقعه، مما دفع شوكت أن يسأله
باهتمام:

- فيما تفكر.. ألا ترتاح لهذا الظن!
- التفت إليه فى وجوم.. ثم قال بنبرة حائرة :
أفكر فيك.. وفى السر الغامض الذى يربطك بتلك الأسرة.
- عاد إلى لامبالاته، وقال بلا اكتراث:
هذا ليس شأنك.. المهم عندى ألا تكون أبلهًا فى تصرفاتك.
- استتفzte كلمات أبيه، فقال بلا تردد:
على كل حال هذا قرارى ولن أراجع عنه.
- قال بتهكم وسخرية:
منذ متى وأنت صاحب قرار.. طوال عمرك وأنت تترك
الظروف هى التى تحدد مصيرك.. كانت كل إمكانياتك هى أن
تعتزل الآخرين وتجلس فى غرفتك كالمعتوه نادبًا حظك العثر..
لقد حان الوقت لكى أوضح لك صورتك الحقيقية أمام
الآخرين.. ولولا أننى استطعت تديبر لك هذا العمل وتلك
الظروف لما تجرأت على وأن تعارضنى وتحاول أن تفهم أشياء
أكبر من مستواك الفكرى.. و..
- سكت برهة ازدرد فيها ريقه ثم أردف:

- أنت تجهل الحياة التي نعيشها، وإذا لم تستمع إلى نصائحي
سوف تندم كثيراً.

وفى اللحظة التي كاد فيها هيثم أن يعبر عن ثورته، حتى ابتلع
رغبته أمام مفاجأة صوت طرقات شديدة على الباب الخارجى مع
أصوات متداخلة كثيرة تصيح بعنف مرردة:

.. افتح الباب.. افتح الباب.

تسمر شوكت فى مكانه كالمشلول من شدة المفاجأة، بينما
تحرك هيثم بخطى متعثرة نحو الباب وفتحه، ليفاجئ بمجموعة من
ضباط المباحث والمعاونين لهم يقتحمون الشقة وأمطروه بالأسئلة
التي ألجمت لسانه :

.. أنت هيثم شوكت فهمى.

.. أين أخبأت النقود التي سرقتها.

والتفت أحدهم أمراً بحزم :

- فتشوا المكان .

وبصعوبة بالغة تحركت شفاه شوكت متساءلاً :

- ماذا فى الأمر يا حضرة الضابط؟!

قال أحدهم دون أن يلتفت إليه:

- ابنك متهم بسرقة مبلغ خمسين ألف دولار من خزانة الباخرة
التي يعمل عليها.

صاح هيثم مرتعباً:

- أنا..

لاحقه الضابط قائلاً :

- لدى بلاغ ضدك من صاحب الباخرة السيد/ مدحت حمدي بأنك سرقت المبلغ من خزانة الباخرة.. وتقدم عدة أشخاص من العاملين بأنهم رأوك في آخر رحلة وأنت تحوم حول غرفة الخزانة.

وقبل أن يتفوه هيثم بحرف واحد، فوجيء بالضابط يأمرهم بلا تردد:

- احضروه إلى القسم لاستكمال التحقيق.

وفي لحظات كان هيثم محاصراً بالرجال، بعضهم يدفعه أمامهم بقوة والبعض الآخر يشل حركة يديه. بينما توجه كبيرهم إلى شوكت قائلاً :

- لا تبعد كثيراً عن منزلك.. فقد نحتاجك في بعض الأسئلة.. و.. فربما تكون شريكاً له أيضاً.

وانصرف الجميع بنفس سرعة ظهورهم.

بينما ظل شوكت في مكانه مشدوهاً وكأنه في كابوس شرس. ولم يستطع غير أن يتمتم في همس قائلاً:

.. ألم أقل لك أنك ستندم كثيراً يا أبله.



ما قيمة الحق إذا كان الباطل أقوى.

وما أوهن شعارات القيم إذا ما تهاونت أمام إمكانات الظلم
وانهيار الذمم.

تساؤلات مريرة غاصت في أعماق هيثم وهو يجتر انكساره
وسط سيل الاتهامات التي كانت تحاصره من المحققين بدافع أن كل
الشبهات تصب عنده بمفرده.

وكانت الضربة الأقسى عندما تلقى مكالمة هاتفية مجهولة
المصدر تخبره بأن الأمر يمكن معالجته سريعاً في حالة موافقته
على إتمام الصفقة التي طالبه بها مدحت حمدي.

وكانت المفاجأة الأشرس في وقعها عليه، عندما فوجيء
بجيهان تطلب مقابلته بعد أن سمح لها ضابط المباحث بذلك قبل
أن يتم ترحيله إلى النيابة العامة.

وفي لحظة شجن، كادت أن تستصرخ الكون كله.. همست إليه
بنبرة ملؤها الحيرة والحزن:

- لماذا يا هيثم ١١٩

شعر بأحرف كلماته تمزق حنجرته الجافة وهو يقول باقتضاب:

- أخبرى مدحت.. أنتى موافق!!

تأملته بدهشة حقيقية.. وعادت تتساءل فى حيرة:

- لا أفهم.. وعلى أى شىء أنت موافق؟!

رمقها بنظرة متشككة.. ثم همس بنبرة ذابلة:

- لا وقت للاستفسار.. إذا كنت لا تدرين حقاً!

وقبل أن تعود لتساؤلاتها.. لاحقها مستطرذاً:

- من فضلك أخبريه فقط بموافقتى.. و..

تحول عنها منصرفاً إلى محبسه الاحتياطى.

وكأنها كلمة السر.. أو تعويذة السحر. التى فتحت كل الأبواب،

وطرحت كل الحلول. حيث تم سحب الاتهام من مدحت بدعوى أنه

وجد المبلغ فى قاع الخزانة وأعلنت براءة المتهم. مع تقديم خالص

الاعتذارات!!

لم يندهش عندما وجد جيهان فى انتظاره بسيارتها. واندلف

جالساً بجوارها صامتاً ومستسلماً دون تعليق.

وبعد عدة أمتار التقت إليه قائلة بتوجس:

- لا أعتقد أنه من المناسب الآن أن نتحدث فى أى موضوع.. فمن

الأفضل أن أذهب بك إلى منزلك.. على أن نلتقى فيما بعد.

أوماً برأسه موافقاً، والظنون تعبت في صدره وهو صامت في
تعهد ألا تلتقى نظرتيه بعينيها.

ثلاث ليال وهو قابع في غرفته، وقد توقف الزمن فيها بالنسبة
إليه. لا فرق عنده بين الليل والنهار بل لم يكن في مقدوره أن يعرف
ذلك.. لا شيء يمنحه الإحساس بأنه لا يزال حياً غير إحساسه
بالمرة والقهر.

أدرك أنه في صراع غير متكافئ مع واقعه، ولا سبيل أمامه
سوى الاستسلام للمصير المجهول.

قبل المخاطرة مضطراً وهو لا يدري كيف سيقتمها.. طرح
اختياراً لا يملك اتخاذ القرار فيه. مجرد لحظة فرار لا يدرك
منتهاها أو نتائجها.. الفرار من أجل الفرار فقط.

وبإحساس العاجز أبدى موافقته دون تلكؤ لمقابلة جيهان عندما
طلبت لقاءه في أحد الفنادق بعيداً عن أعين الآخرين.

ذهب إليها وهو مرتعباً ومتشككاً، بائساً ونادماً.. فكره
مضطرباً وحائراً لا يعرف كيف سيخبرها بأنه بالفعل لا يملك
الوسيلة في تجارة الآثار، وأيضاً ماذا ستكون النتيجة بصفحتها أحد
أعضاء الشبكة وقد تكون هي على قمة ذلك التشكيل العصابي.

المصير مظلّم.. والأمل مفقود!!

تقدم نحوها بخطوات هزيلة، وهى تجلس فى أحد أركان بهو الفندق المتفق عليه.

و.. جلس أمامها منكس الرأس، ذليل النفس.

وفى براءة مثيرة.. قالت:

- حضرت لأستمع إليك.

رمقها بنظرة زائغة، ثم عاد يطأطئ رأسه صامتاً.. فأردفت:

- من حقى أن أعرف الحقيقة.. وصمتك هذا يؤرقنى.

قال بصعوبة وتوجس:

- وهل حقاً لا تعرفينها؟!

- يراودنى إحساس بأنك متشكك فى أمر يخصنى.

أجاب بنبرة حذرة:

- وبماذا يفيد تشككى.. وأنتم أصحاب القرار والأمر.

رددت بدهشة:

- أنتم.. ماذا تقصد بهذا المعنى؟

- لا شئ.. ولكنى أقسم لك بأننى ليس فى مقدرتى تنفيذ

طلباتكم.. ليس تمرداً أو فى محاولة للمساومة.. ولكنها

الحقيقة أنا بالفعل لا أعرف الطريقة.. وأنا ظلمت فى

الماضى.. وها أنا أقهر فى حاضرى.

لاحقته بانفعال صادق:

- هيثم .. أتوسل إليك أن تخبرنى بالحقيقة.
و.. أخبرها بكل شىء.

شعرت بكلماته وكأنها مخالب وحشية تنهش فى أحشائها،
الذهول أصابها بدوار عنيف فبدت وكأنها تترنح أمامه من هول
المفاجأة. وراحت تردد وهى مقيدة الفكر:
.. مستحيل .. مستحيل.

وهو يواصل سردہ لقصة حياته بأكملها، بعدما انتابه إحساس
بالأمان نحوها. ومنحه شعوره بصدقها إحساساً بالجرأة والثقة
وأفرغ أمامها ما فى أعماقه من مشاعر الظلم والألم، وكأنه تحين
الفرصة لكى يبيث شكواه لأحد آخر غير ذاته.
ولكنه اضطر للتوقف عن الحديث، عندما أسكتته قطرات
دمعها التى انسابت من بين جفنيها فى صمت.

وبادرها برفق:

- دموعك هذه أقسى علىّ من كل عذابات الماضى.
حاولت أن تتمالك قبل أن تجيبه قائلة :

- لم أكن أتصور أن فى الدنيا نفوس بشعة إلى هذه الدرجة.
ولأول مرة منذ زمن بعيد تستطيع ابتسامه أن تقفز فوق شفتيه
وأجاب من خلالها قائلاً:

- الآن فقط فى إمكانى مواجهة أى قوة شريرة تحاول اعتراض طريقنا .

همست بحنان :

- أنا .. وأنت .

أسرع قائلاً بحماس حقيقى:

- بل من أجلك أنتِ .. فأنا على استعداد للتصدى لكل شياطين الدنيا ومجرمىها .. فلم أعد أخشى شيئاً ويكفينى وجودك بجانبى .

قالت بود دافئ:

- لن أنسى فضلك علىّ .. فأنت أنقذتني من كارثة حقيقية كادت تدمر مستقبلى ظلماً .. و..

غابت فى لحظة شرود، وافترشت ملامحها أسارير الكآبة بشكل مفاجئ مما دفعه لأن يبادرها قائلاً :

- أنا آسف لم أكن أقصد ولا كنت أتمنى أن أكون سبباً فى إيذاء مشاعر الحب التى تربطك بمدحت .

لاحقته بإنزعاج :

- لا تفهم خطأى .. فأنا أفكر كيف سنتخلص من هذه المشكلة .. وأخشى أن يكون ذلك الوغد قد ورطنى فى أمور دون علمى .

.. يخف سعادته وهو يعلق قائلاً :

- لا تخشى شيئاً .. فأنا سأدبر الأمر بمعرفتى .. و..

صمت لحظة .. ثم استطرد وهو يتأمل عينيها قائلاً:

- إلا إذا كنتِ لا تثقين بي!

ترقرقت على شفيتها إبتسامة هادئة .. وأجابت:

- استفتى قلبك .

قال بصدق شديد:

- قلبى بات غير محايداً .. لأنه أصبح ملكك.

نهضت بعد أن طفرت إلى بشرة وجهها حمرة الخجل .. وقالت

بدلال:

- وأنا لن أسمح له بأن يفلت من سطوتى إلى الأبد .

وقف بتلكؤ وكأنه لا يريد انصرافها .. ثم قال برضى:

- عليك بالانصراف أولاً .. على الأقل مؤقتاً .

برقت عيناها وكأنها تضمه بين جفونها .. ثم استدارت منصرفة .

كان فراقاً سعيداً!!

احتوتهما لحظة واحدة فى عمر الزمن، أتت بهما فى لقاء

متوتر وتعيس ثم فرقت بينهما فى فراق ودود وسعيد .

إنه الأمل .. بوابة الحياة وروعة الوجود .

لحظة الزمن التي يخرج من رحمها شروق الشمس لتشع دفئاً على جزء من الدنيا وهي نفس اللحظة التي تخيم بظلامها على الجزء الآخر. لحظة الزمن التي يسطع قمرها ليملاً جانباً من الأرض ضياءً مرتيمياً في أحضان الليل في حما الكواكب والنجوم، وهي اللحظة ذاتها التي تفرد ذراعيها لتضم فجر يوم جديد على الجانب الآخر من الوجود.

هنا أمل. وهناك ندم.

والندم كان في لقاء شوكت فهمى بأمال حلمى عندما فوجئ بها تأتية إلى منزله لأول مرة في لحظة فاض الكيل فيها عند كليهما.

لم تأخذه الدهشة، بقدر ما سحبتة خواطره الشيطانية بأنها أتت لتخبره بانتهاء مهمتها المتفق عليها.

ولكن سرعان ما تبددت إرهابات التمنى، عندما لاحظ شحوب وجهها وبؤس نظراتها الصامتة.. و..

تساءل بنبرة متوجسة ومتحفزة :

- هل انتهى الأمر؟

أجابت بانكسار قبل أن تجلس :

- نعم .. ولكن على غير توقعنا .

وراحت تسرد عليه أخبارها بكلمات شعر بها وكأنها طلقات من
اللهيب أخذت تتراشق فى كل جزء من كيانه الواهن.

وهى تخبره بأن زوجها كان يرصد تحركاتهما من خلال
العاملين فى الثيلا وبأنه ألغى جميع التوكيلات التى منحها لها فى
السابق، وسلبها كل ما تملك بعد أن واجهها بحقيقة أمرها بأنها لا
تصلح كزوجة كما كانت لا تصلح كأُم، وبأنه غادر البلاد ولا تعرف
إذا ما كان سيعود أو لا. و..

وانفجرت لحظة العدم.. اشتعلت براكين الدنيا فى صدره،
وتمردت أحشائه فى ثورة على جسده الذى أنهكته تجاعيد الزمن.
كاد أن يتقيأ دمًا وتتمزق حنجرتة من شدة صراخه وانفعالاته هدد،
وتوعد، وأمطرها بأبشع الأوصاف وأسوء المعانى. اتهمها بأنها
اتفقت مع زوجها ودبراً هذه الحيلة لكى يتخلصا منه.. من ماضيها
الأسود وحاضرها اللعين.

صرخ متلعثمًا من قسوة الانفعال :

- أتظنان أنكما أذكى من شوكت فهمى.. لقد كان لدى إحساس
بأنكما من فصيلة واحدة.. عصابة تختفى وراء أرسقراطية
الحضيض.

لقد أخطأتى يا فاجرة لأنك لم تفهميه قدرى.. سأدمرك..
وأدمره سأنال منكما قبل أن تنفذا فكرتكما الدنيئة. سيكون
مصيرك السجن ومصيره الفضيحة والضياع.. و..

وراح يقذفها بكل ما تصل إليه يده.. وهو يصيح بهستريا
عنيفة:

- اغربي عن وجهي.. اغربي عن وجهي وستري ما يمكن أن يفعله
شوكت فهمي يا لقيطة الطرقات.

وغريت عن وجهه.. ولكنها لم تغرب عن أعماقه الثائرة.

ظل طوال الليل ينتقل من غرفة إلى أخرى.. لم يلحظ غياب
هيثم كعادته أو كعادتهما في طبيعة العلاقة الغريبة التي تجمع
بينهما كأب وابن.

بدا كالفهد الأسود وهو يزحف بخطاه لينقض على فريسته..
هو أيضاً كان يغربل خواطره باحثاً عن أبشع وسيلة للانتقام.

أصبح الانتقام غايته وليس الرغبة في المال.. وكأن قد وافته
الفرصة لكي يشفى غليله من الماضي ومن الدنيا التي لم تستجب
لطموحاته المشروعة وغير المشروعة.

أمال حلمي تحولت في نظره إلى تجسيد مكثف لكل خطاياها،
وكانه يرغب في التكفير عنها بعد فوات الأوان والعمر أيضاً.

لا يريد أن يقتلها، فالقتل قد يريحها وهو لا يرغب في ذلك..
يريدها تتذوق مرارة العذاب في حياتها وفي ذكراها، تماماً كما
تقلب هو فوق أسنة الفقر والاحتياج وتلوى من صراعات وإحباطات
حياته، وكذلك حاضره البائس.

وهده تفكيره الحاقده إلى الوسيلة.

وكانت وسيلته هي ابنتها چيهان التي قرر أن يذهب إليها. ومع إشراقه الصباح التالي وبعد أن حدد التوقيت المناسب لتواجدها بالشركة، وعندما تأكد من ذلك اقتحم مكتبها بجرأة وبادرها قائلاً وهو يضغط بقوة على فكيه :

- أنتِ إذن الضلع الثالث في العصابة!!

نظرت إليه في فزع بعد أن أخذتها المفاجأة إلى الاضطراب الشديد.

ولم ينتظر رد فعلها فاستطرد قائلاً :

- إذا كنت تدعين عدم معرفتك بي.. فأنا والد هيثم.. و..

قبل أن تتماسك في محاولة للترحيب به.. أردف مواصلاً كلماته:

- هيثم فريستك الجديدة، التي صورتى أنه صيد سهل لأعمالك الإجرامية.

أفلتت منها صيحة منزعجة.. وتساءلت في ذهول:

- ماذا تقول .. وماذا تقصد حضرتك!؟

ضحك ساخراً في توقيت غير مناسب للموقف.. ثم أجاب باستهزاء:

- هكذا يكتمل الثالث.. أبوك وأمك يستغفلاني وأنتِ تدمرين ابني من خلال تشكيلك العصابى.. يا لكم من أغبياء.

وهنا لم تتمالك جيهان صبرها أكثر من ذلك، ونهضت من وراء مكتبها صارخة بعنف:

- كفى يا رجل.. لا بد وأنك مصاب بالهذيان أو تخاريف شيخوختك.. أنا لا أسمح لك بأن تطاول على الشرفاء مثلنا.. مهما كانت مكانتك.. ولن يشفع لك أنك والد هيثم.. و.. قاطعها بتهمك مرددًا:

- شرفاء.. يا للعجب.. ابنة أمال حلمى تتحدث عن الشرف والشرفاء.

انهارت مقاومة تماسكها وصاحت:

- اخرس يا معتوه.. وانصرف فوراً قبل أن أستدعى من يلقوا بك على قارعة الطريق.

صمت لعدة لحظات وهو يتأملها بنظرة قاسية ومتبجحة، وكأنه يراجع فى عقله خاطراً قد يكون محتملاً.. ثم قال بنبرة مختلفة:

- سأفترض أنك بالفعل لا تعرفين الحقيقة.

- أى حقيقة تلك التى تتحدث عنها.

جلس بفتور وهو يشير إليها للجلوس.. قائلاً:

- اجلسى.. وسأخبرك بالحقيقة.. لعلك صادقة فيما تدعين!!

و.. بدأ كلماته بأحداث الماضى البعيد .

لم يدع تفصيلا صغيرة إلا وذكرها .. أعاد أمامها صورة الماضى التى لم تعشه ولم تتواجد فيه .. أخبرها بكل شىء .. بقصة الهروب وبالوليد الذى باعوه، وبليالى الرذيلة .. وبورقة الزواج العرفى .. وأخيراً بالمفاوضات والمساومة .. والاتفاق على التخلص من أبيها .. ثم انتهى إلى قصة الغدر به . ثم سكت فجأة بعد أن أعياه الحديث الطويل وذكريات الماضى .. وأيضاً بعد أن لاحظ تحجر ملامحها وكأنها تمثال حجرى لا حياة فيه .

نهض بصعوبة وإعياء .. ثم همس بصوت كالصدى قائلاً قبل انصرافه:

- الآن فقط تخلصت من الأطلال الجاثمة فوق أعماقى .. ولم أعد أريد شيئاً من الحياة .. ولا أنتظر منها أن تعطينى شيئاً . وتركها وهو يجر فى خطواته الذليلة، بعدما فشل فى التخلص من إحساسه بالهزيمة بعد كل ما قاله عن نفسه وعن الآخرين . وما كادت تطلأ قدماه الطريق، حتى أطاحت به سيارة مارقة وأسقطت جسده النحيل فى صراع مع الموت وصدى الهمسات من حوله تخترق أذنيه بصعوبة:

.. الرجل يلفظ أنفاسه الأخيرة .

.. احمـلوه لأقرب مستشفـى.

.. يبدوا أنه توفى.

كان واعياً لما يدور من حوله لعدة لحظات، وكأن الدنيا أرادت أن تخبره بأن ما زال لديها الكثير لكى تقدمه له.. وبأن من أهم عطاياها هى العدالة.

9

عندما تختفى القدوة.. تضيع الخطى ولا تتعثر.. وتتوارى
المعالم وتتقلص حزنًا وبأسًا، تطول أيادي الخطئ والخطيئة،
وتختلط الأشياء فى غير تجانس فلا هى تبقى ولا تذوب فى بعضها.

عندما تختفى القدوة.. تتبدل المفاهيم وترحل الآمال ويتوحش
الباطل وتكتئب الأحلام. تطفئ المشاعل ويسود الظلام، وتبكي
المبادئ على أطلال ذكرياتها. وتتمرد القيم على حالها وتكاد تسخر
من نفسها.

عندما يحدث ذلك.. تذبل الجذور فتهار القامات، وتفوح
رائحة العفن من الزهور وترحل الفراشات. تصبح الوجوه عابسة
وتموت الابتسامات.

عندما تختفى القدوة.. يسيطر الرياء وينتحر الانتماء، وتترىص
الأنفس بعضها لبعض، ويصبح الحق إدعاء والكذب ولاء.

يكون الأمل مقبرة للأحياء!!

هكذا أصبحت جيهان بعد أن فقدت قدوتها، وصُدمت فيها. لم
يعد فى مقدورها أن تواجه نفسها ولا الآخرين. فأثرت الانطواء فى
سجن إرادى داخل غرفتها.

أمال حلمى أدركت بفطنتها أن ابنتها قد عرفت الحقيقة،
فاختارت الصمت المرير فى ترقب مذعور من غموض المصير.

ليال طويلة موحشة، راحت تمتص من نضارتها يوماً بعد يوم
حتى باتت كالفرع اليابس الذى ينتظر سقوطه مع أول ريح عابرة.
انقطعت عن عملها وأغلقت هواتفها، واستسلمت لعزله الجنون
أو الموت. ماذا يمكنها أن تفعل!!

كأنها نبتة صغيرة ما كادت تتنسم نقاء الحياة، حتى هاجمتها
أعاصير الطبيعة ودوامات الصحارى.

طائر جميل يغرد فرحاً وابتهاجاً بالدنيا، ويتقل بأجنحته
الرقيقة بين الأغصان وفوقها، فيجد نفسه فجأة بين مخالب صقر
برى راح يمزق جسده بلا رحمة.
ماذا يمكنها أن تفعل!!

وهى ترى الهامات العملاقة تتهاوى فى خزى وانكسار..
والمعانى الجميلة تتحول كالحرىء إلى مضامين وهمية كسراب لا
وجود له. ما أصعب أن يكتشف الإنسان أنه كان واهماً.. وبأن كل ما
حوله مجرد زيف وخداع، وبأن لا حقيقة فى حياته إلا إحساسه
بالألم والحسرة. هى فقدت الأمل، وفقدت الرغبة فى البحث عنه.
ولكن.. الأمر كان مختلفاً عند هيثم شوكت.

لم يفقد الأمل، ولم يفقد الرغبة فى البحث عنه.. أو عنها.

كان سعيداً وفخوراً بنفسه بعدما أتم مهمته التي أعادت إليه الإحساس بذاته. أعادت إليه الأمل المفقود.

أدرك أن النهر الصافي الرقراق يمكن أن يستعيد نقاءه إذا ما بترت الآيادي التي حاولت تلويثه.

وأن للقيم والمبادئ حماه أشداء وأقوى بكثير من خفافيش الكهوف مهما انتشرت وكثرت.

أدرك كل هذا بعدما تم القبض على مدحت وعصابتها من خلال الكمين الذي خطط لهم عن طريق الشرطة وبالاتفاق معه.

تخلص من عار الماضي الذي ظلّمه ومن مذلة الحاضر الذي قهره.

تخلص من الخوف واليأس، ومن التردد الذي لازمه طوال حياته. لم يعد هناك ما يؤرق أعماله إلا اختفاء جيهان المفاجئ. بحث عنها في كل مكان. في مقر إدارة شركتها، وفي الفنادق التي يمكن أن ترتادها بحكم عملها.. سافر أسوان والأقصر. سأل كل من له صلة بها.

لا أحد يعرف.. ولا أحد حاول أن يعرف!!

ويكون حكم القدر ألا يعرف إلا من خلال والده الذي يصارع الموت ما بين غيبوبته المتسلطة وصحوة هزيلة باهتة، وهو يرقد فوق فراش النهاية بالمستشفى.

وأدرك ما هو أهم وأصدق.

أن للحب قدرة تفوق كل تصور، وبأن الحب فى إمكانه أن يواجه شرور الدنيا بأكملها ليحمى نبضاته من ضربات الغدر والخيانة. أدرك أن القوة لا تمنح، ولكنها تُستدعى.

فاستدعى شجاعته وقوته، ليدافع عن حبه وذاته .. وأمله.

وقرر الذهاب إلى جيهان فى شيلتها.

وبثبات يسبقه إصرار عميق، سأل أحد العاملين بالقبلا عن جيهان وألح بشدة فى طلب رؤيتها.

شعر وهو ينتظرها فى الحديقة، بالدقائق وكأنها عمر ثان .. أو بزمن لا نهاية له.

و.. رآها.

رأى الأمل يتجسد صورتها وهى تتقدم نحوه بخطى ثقيلة وكأنها تحمل أثقال الكون كله.

هرع إليها وكل خلجات كيانه تتبض بلهفة الشوق .. وبأدائها قائلاً:

- بحثت عنك فى كل مكان .. لم أياس .. لأنى كنت واثقاً من أن القدر سوف ينصفنا ولأن كلانا فى حاجة إلى الآخر.
رفعت رأسها ببطء، ثم نظرت إليه بشرود وقالت:

- لم أتوقع رؤيتك ثانية.. فمن المؤكد أنك عرفت الحقيقة.
أجاب بسرعة:
- الحقيقة الوحيدة التي عرفتتها.. أننى لا أستطع فراقك.
همست بنبرة هزيلة :
- فات الآوان يا هيثم.. فجيهان التي كنت تبحث عنها لم يعد لها وجود.
- أنتِ أمامى الآن. وأراك بقلبي قبل عيني.
قالت بحزن:
- التي أمامك هى بقايا إنسانة.. بقايا حياة.. بقايا نفايات تنتظر حرقها أو دفنها فى مقبرة العدم. و..
قاطعها بإنزعاج واضح قائلاً:
- ما هذا الهراء الذى تقولينه.. أنتى جيهان التي كنت أبحث عنها طوال حياتى دون أن أعرفها، وأنتى التي بحثت عنك بعدما التقيت بك.. وأنتى أيضاً التي سأسخر حياتى الباقية لكى أحفظ بك.
- تأملت أفرع الشجرة التي بجوارها وتساءلت :
- فى نظرك إلى أى مدى يمكن أن تحيا الأغصان بعد أن تُقتلع من جذورها.

أجاب بإصرار:

- إذا ما غُرست فى تربة صالحة.

تجاوزته بخطوتين.. ثم قالت:

- أنت واهم يا هيثم مثلما كنت أنا فى الماضى.. فأنا وأنت

أصبحنا كالصيف والشتاء لن يلتقيا أبداً.. كلانا قُدر له أن

يكون مرآة لماضى الآخر.. ماضى شرس وجبار ولن يفسح

مكاناً فيما بعد إلا لمن كان شبيهاً لسلالته أو عشيرته.

تقدم نحوها وأصبح فى مواجهتها، ثم قال بنبرة محبطة:

- حتى لو كنت توهمت يوماً أنك تبادلينى نفس شعورى نحوك..

فمن حقى عليك أن تتصتى لى.. و..

حاولت أن تجيب قائلة :

- أنا ..

ولكنه قاطعها واستطرد قائلاً:

- تأملى يا چيهان الحياة على حقيقتها.. فالمعانى ليست حكرًا

لأحد. النجاح والسعادة والأمل كالهواء والأنهار والأمطار..

الحب والظهر والشرف كالسما والشمس والقمر. الله

سخرها لكل البشر. الذنوب لا تورث بل هى من اختيار

البعض، وإلا فما ذنب اللقطاء.. وما ذنب الأبرياء إذا ما

تعرضوا للظلم والقهر.. ما ذنب الشرفاء إذا ما تعرضوا للخيانة والغدر. ما ذنب الأمل إذا لم يجد الصدر الذى يحتضنه. ..

تناول يدها برفق.. ثم أردف قائلاً:

- ما الذنب الذى اقترفناه أنا وأنتى لكى نتحمل آثام من قبلنا؟ لماذا نقبر الحب من أجل كراهيتهم، ونفتال طموحنا من أجل بؤسهم، ونلوث طهارتنا من أجل فسادهم؟

وفى لحظة صدق، شعر بها وكأنها احتوت الزمن كله عندما فوجئ بها تلقى برأسها فوق صدره وراحت تجهش ببيكاء مرير وكأنها تفتسل من كل أحزان الماضى.

لم يقو إلا على الصمت، وهو يربت على كتفها بحنان شديد ثم همس بحب دافئ.

- كفى يا حبيبتي.. فلا مجال للدموع بعد الآن.

تأملته ثوان قليلة بنظرة ملؤها العطف والهيام.. وقالت بنبرة يظلها صدى الدلال :

- إياك أن تصدق أنك كنت واهماً.

ترقرقت ابتسامة هادئة على طرف شفتيه.. ثم أجاب:

- سأفعل يا غالية.. ولكن بشرط أن تحققى لى مطلبى الوحيد.

أسرعت متسائلة :

- ماذا هو ؟

أجاب بترقب :

- أن تأتي معى لزيارة أبى.. فهو يريد أن يراك.. بل ويتوسل لك أن تذهبى إليه.

تراجعت بخطوة إلى الوراء وهى ترمقه بذهول.. فأسرع مستطردًا:

- هل يمكن أن يراودك خاطرًا، بأن أفعل شىء يسىء إليك؟!

أومات برأسها نافية.. ثم رددت:

- مستحيل يا أغلى الناس.. لأنك لن تسيئ إلى نفسك. فكلانا كيان واحد.

قال بسعادة بالغة وهو يتأبط ذراعها :

- إذن.. هيا بنا الآن.. فأمامنا بعد ذلك رحلة طويلة مع حياتنا ومستقبلنا.

و.. انطلقا بسيارتها فى اتجاه المستشفى.

كان سعيدًا. لأنه استطاع أن يخرجها من عزلتها كما فعلت هى معه فى الماضى. أنقذها كما أنقذته من دوامات اليأس والإحباط.

وكان الأقدار أرادت أن تربط مصائيرهما بحياة واحدة، ومستقبل مشترك.

كلاهما أعاد الآخر إلى طريق الأمل.

و.. وصلا إلى المستشفى.

لحظة تجسدت فيها أصدق معاني الحقيقة.

الحقيقة التي قد تغيب عن أذهان البعض عمداً أو جهلاً.
عندما تختال الأنفس بقدرتها وتلاعب بها الظنون بأنها قادرة على
فرض سلطانها وتحقيق رغباتها في الوقت الذي تريده وتحدده.

للحظة التي طالما أفصحت عن نفسها في كل الأزمنة
والعصور، ولطالما أيضاً عانت من تكبر الغرور وغطرسة الشهوات
وغيبوبة الوهم والسراب.

كان شوكت فهمى يغوص في فراشه بلا حول ولا قوة.. جسد
جاف كالمومياء، مغمض العينين وقد صبغت بشرته بلون رمال
الصحراء.

انحنى هيثم ليقترّب كثيراً من ذلك الكيان الذابل.. وقال
بصوت مسموع:

- جيهان معى.. هل تسمعنى، جاءت كما أردت!

وبصعوبة بالغة ومعاناة أشد، تحركت شفتى الرجل المتشققة
وكأنها جزء من سطح أصم يتعرض لزلزال يشطر بعضاً منه.
حاول أن يفتح أحد جفنيه لعله يرى.. أو كان يأمل ذلك.

وبصوت ضعيف كالصدى الآتى من أعماق سحيقة.. قال

هامساً:

- سامحيني يا ابنتى.. أنا الآن فى لحظة لا تقبل إلا الحقيقة والصدق.

أزدرد ريقه وكأنه يتوسل لזفرة الموت أن تمهله قليلاً.. ثم

أردف:

- لقد أخطأنا وحن موعد سداد جزاء الخطيئة.. نحن التعمساء وأنتم الأبرياء ولا ذنب لكما فيما اقترفناه.. أنتم لآئى المستقبل. واللآئى تظل قيمتها فى نفسها مهما تراكمت فوقها القاذورات وتلال الوحل.

أرهقته الكلمات فصمت مضطراً، وعاد هيثم يقترب منه قائلاً:

- نحن سنرحل الآن.. هل ترغب فى شىء آخر؟!!

همس وكأنه يحدث نفسه:

- وأنا أيضاً.

انصرفا دون تعليق.

وعند الباب الخارجى للمستشفى. توقفت چيهان أمام باب

السيارة وقالت بحماس:

- ما رأيك يا هيثم؟.. أنا أفكر فى افتتاح فرع جديد للشركة فى

مرسى مطروح أو فى شرم الشيخ.

أسرع يقول وهو يقف عند الجانب المقابل لها:

- أنا أفكر فى مشروع أهم.. حددت له مدة أسبوع لدراسته..
على الأقل يكون والدك عاد من السفر.

أجابت بتلقائية:

- مثل هذه المشاريع المهمة التى تقصدها لا تحتل الانتظار لمدة
أسبوع.. وأنا يمكننى اتخاذ القرار فيها الآن .. وفوراً.
و.. اشتركا فى ابتسامه تشع البهجة والأمل، قبل أن يندلجا إلى
داخل السيارة وينطلقا بها.

تمت

أحمد فريد

الإصدارات الروائية للأديب أحمد فريد



1972	نشرت في ليبيا	همسة وداع
1973	نشرت في ليبيا	الشك
1975	نشرت في ليبيا	خطوات بلا طريق
1976	مطبعة النهضة بالقاهرة	نبضات لا تموت
1980	دار غريب بالقاهرة	الحب وحده لا يكفي ممر الذئاب - ثلاثة أجزاء
1982	دار غريب بالقاهرة	دعني أحاول
1983	دار غريب بالقاهرة	عندما يبكي الرجال
1984	دار غريب بالقاهرة	لا تدمرني معك
1985	دار غريب بالقاهرة	يا صديقي كم تساوي
1987	دار غريب بالقاهرة	لن تسرق حبي
1990	دار غريب بالقاهرة	سامحني يا حب الحب الكبير - ثلاثة أجزاء
1994	دار قباء بالقاهرة	هو منتهى الحب
2001	دار قباء بالقاهرة	عمر عمري
2002	دار قباء بالقاهرة	كذبت عليك فصدقني
2004	دار قباء بالقاهرة	يا أنا لا ترحل عني
2005	دار قباء بالقاهرة	حب بلا مأوى
2006	دار قباء بالقاهرة	الحب بعد المساومة

- دار قباء أعادت طبع جميع الأعمال الروائية.
- حصل على جائزة مهرجان القاهرة السينمائي عام 1982 عن أحسن قصة لفيلم «الحب وحده .. لا يكفى».. إخراج على عبدالخالق .
- ترجمة رواية «الحب.. وحده.. لا يكفى» ورواية «عندما يبكى.. الرجال» إلى اللغة الصينية.
- تمت ترجمة رواية «هو منتهى الحب» إلى الإنجليزية.
- صدرت الطبعة الثالثة من رواية «هو منتهى الحب» فى كتاب الجمهورية (الأعمال التى تحولت إلى أفلام سينمائية).
- « الحب وحده .. لا يكفى ».. إخراج على عبد الخالق - سيناريو وحوار «مصطفى محرم».
- « عندما يبكى .. الرجال » .. إخراج حسام الدين مصطفى.. سيناريو «مصطفى محرم» وحوار «بهجت قمر».
- « لا تدمرنى معك» إخراج محمد عبد العزيز .. سيناريو وحوار «أحمد صالح».
- «يا صديقى كم تساوى».. إخراج يوسف فرنسيس .. سيناريو وحوار «يوسف فرنسيس».

- عضو اتحاد الكتاب منذ بدايته.

- عضو نادى القصة .

- عضو الجمعية المصرية لكتاب ونقاد السينما.

- عضو رابطة الأدب الحديث.

obeikandi.com